370

HARLEQUIN

روايات أحلام

الماضي السجين

سارة كريفن

www.elromancia.com
مرمورية

الماضي السجين

كم جميل أن ترث زو لامبرت تلك الفيللا الفخمة على الجزيرة اليونانية ؛ إنها في الحقيقة فرصة لتعيد بناء حياتها . بيتها الجديد رائع . . . وكذلك البستاني المثير الذي يعتني بالحديقة . . . يا له من وضع غريب . . .

فما هذا الانجذاب التلقائي العجيب بينهما . . .

لكن أسراراً كثيرة تتكشف حين تعلم زو أن أندريس ليس بستانياً متواضعاً بل صاحب شركة نقل بحري فاحش الثراء .

هوية أندريس الجديدة تجعله بعيد المنال إلا إذا استطاع التخلص من سلاسل الماضي التى تقيده ليطالب بزو عروساً له . . .

ساره كريڤن

بدأت ساره كريڤن بالكتابة لشركة «ميلز آند بونز» سنة ١٩٧٥، وقد باعت منذ ذلك الحين ما يناهز السبعة عشرة مليون نسخة من كتبها في أنحاء العالم. وهي تهوى إلى جانب الكتابة، مشاهدة الأفلام والاستماع إلى الموسيقى والطهو، كذلك تناول الوجبات اللذيذة في مطاعم فخمة. تعيش ساره كريڤن الآن في مدينة «سومرسيت» وهي متمرّسة في متابعة برامج المسابقات التلفزيونية والمشاركة فيها.

١ ـ شيء من الماضي

ـ فكرت في الأمر كثيراً فوصلت إلى قرار حاسم وهو أننا يجب أن نتزوج.

جاهدت زو لامبرت كيلا تختنق باللقمة التي وضعتها لتوها في فمها.

لو أن أي شخص، عدا جورج اقترح عليها هذا، لضحكت بازدراء. لكنها لا تستطيع ذلك مع جورج الذي يجلس الآن أمامها إلى المائدة.

كان جورج صديقها، أحد أصدقائها القلائل في كلية «بيشوس كروس»، لكنهما لم يخرجا قط في موعد وما من ذرة تجاذب بينهما. وحتى لو فكرت في أن تقع في حبه، فمجرد التفكير في أمه كفيل بأن يمنعها من ذلك.

كانت والدة جورج أرملة فولاذية القلب، تحرص على أن تبقي ابنها معها في البيت عبداً أعزب مطيعاً. وعيناها الفولاذيتان ستضيقان لو أنها علمت أن ابنها الوحيد هو الآن في مقهى المدينة الوحيد يحتسي القهوة مع زو لامبرت، من بين كل الفتيات، فكيف لو علمت بعرضه الزواج عليها؟

أخذت نفساً عميقاً وقالت برقة: «جورج، لا أظن...».

لكنه تابع يقول من دون انتباه لما تقول: «ستجدين الأمور صعبة الآن بعد أن أصبحت... وحيدة. كنت غاية في الشجاعة أثناء مرض أمك، والآن، أريد أن أعتني بك».

لكن أمه ستدس لها السم في طعامها، تحثها على ذلك خالتها ميغان.

www.elromancia.com

وأجفلت في داخلها وهي تتذكر تصرفات ميغان أرنولد وهي تتقبّل التعازي من أصدقاء أختها الراحلة وجيرانها باختصار بعيد عن اللياقة. كما أنها لم توجه كلمة واحدة إلى ابنة أختها التي أصبحت الآن قريبتها الوحيدة.

وعندما عادتا إلى الكوخ، بعد انتهاء الجنازة، رفضت خالتها تناول أيّ طعام أو شراب، مكتفية بالنظر إلى ما حولها بصمت وعينين ضيقتين مقيّمتين.

لكن لم تر زو أي حزن على وجه خالتها، التي بقيت بعيدة عن أختها أثناء مرضها الذي دام شهوراً. وإذا كانت حزينة، فقد أخفت ذلك بمهارة.

نبذت زو من ذهنها كل هذه الأفكار، ودفعت خصلة من شعرها الأشقر عن وجهها، ثم نظرت بثبات إلى طالب يدها للزواج، وسألته بلطف: «أتريد أن تقول إنك واقع في غرامي يا جورج؟».

بدا عليه الارتباك وقال وهو يعبث بحافة فنجانه: «أنا أعزك كثيراً، وأكنّ لك احتراماً بالغاً، ولا بد أنك تعلمين هذا. لكنني لا أظن أنني من النوع الذي يحب، كما لا أظنك كذلك، أنت أيضاً. أظن أن الصداقة أكثر أهمية».

ـ نعم، يمكنني أن أفهم ذلك، ولعلك على حق.

وابتلعت بريقها وأردفت: «جورج، أنت رقيق للغاية، لكنني لن أقرر الآن بالنسبة إلى المستقبل. ما زال حزني على فقدان أمي بالغاً، وما زالت الأمور غير واضحة بالنسبة إليّ».

ـ حسناً، أنا أدرك ذلك طبعاً، ولن أضغط عليك. أريدك فقط أن تفكري في ما قلته لك، فهل ستفعلين؟

ـ نعم، سأفعل ذلك طبعاً.

إنه أول عرض زواج تتلقاه، وفكرت في مبلغ غرابته.

سكت لحظة ثم قال متردداً: «لن... أستعجلك للقبول بشيء، بعد ذلك، بل سأنتظر بقدر ما تريدين».

عضت شفتها ونظرت إلى هذا الوجه الرقيق القلق وقالت: «جورج، أنا حقاً لا أستحقك».

وفي الباص، وجدت صعوبة في أن تفكر في أي شيء آخر. لكنها أدركت أن عليها أن تحاول. فعرض الزواج غير العادي من جورج، لم يكن المشكلة الوحيدة التي تواجهها حالياً، ولعلها الأقل إلحاحاً.

لقد جاءت إلى «استنكومب»، منذ ثلاث سنوات عندما تركت الجامعة، وذلك قبل مرض أمها بقليل. لكن البيت مستأجر، ومالكه هو زوج خالتها ميغان الراحل بيتر أرنولد، الذي وقّع عقد الإيجار الأساسي مع أخت زوجته.

واشتبهت زو في أن هذا الأمر شكّل موضوع النزاع بينه وبين زوجته على الدوام. ومنذ وفاته، أخذت خالتها ترفع قيمة الإيجار تدريجياً رغم عدم حاجتها إلى المال وهي الأرملة الغنية التي لا أولاد لها.

وكانت أمها أرملة أيضاً، وقد حاولت كسب معيشتها إلى جانب راتب زوجها التقاعدي المحدود التافه باستخدام مهارتها في فن الرسم. لكنها كانت حياة غير مستقرة فرحّبت براتب ابنتها زو من وظيفتها كمعلمة لغة إنكليزية خصوصاً عندما لم يعد بإمكان الأم أن ترسم.

أن تبقى في موطنها وتبحث عن وظيفة ليس حلم زو في الأساس. تعرفت في الجامعة إلى ميك الذي كان ينوي أن يجول العالم بعد التخرج، لمدة عام وقد أرادها أن ترافقه. كان الإغراء بالنسبة إليها كبيراً.

في الواقع، زارت أمها في العطلة الأسبوعية لتخبرها بنيتها تلك، لكنها وجدت جينا هادئة بشكل غريب ونحيلة. وسرعان ما علمت من الشائعات في البلدة، أن خالتها ميغان قامت بإحدى غزواتها المعتادة،

وقالت لها أديل الجارة إنّ مشادة كلامية حدثت بينهما.

أمضت زو العطلة الأسبوعية كلها تحاول أن تخبر أمها بما تنوي فعله، لكنها فشلت. وأخيراً، أطاعت غريزتها ووجدت نفسها تخبر ميك أنها غيّرت رأيها بالنسبة إلى الرحلة. كانت ترجو أن يحمل لها من الحب ما يمنعه من السفر من دونها، لكن خيبة أملها كانت بالغة. فقد أدركت بذهول وألم، أن ميك لن يغيّر رأيه بل رفيقة الرحلة فقط.

وسرعان ما احتلت فتاة أخرى مكانها في حياته وعواطفه.

لكن هذا علّمها درساً ثميناً عن الرجال، وربما كان من الأفضل أن ينبذها في إنكلترا بدلاً من الهند. ومنذ قصتها مع ميك، لم تقم أيّ علاقة جادة مع أيّ رجل. وها هو جورج يطلب يدها، فيما هو لا يحبها. يبدو أن التاريخ يعيد نفسه.

والآن، وهي تتذكر الماضي، لم تندم على تضحيتها باستقلاليتها. قد تكون البلدة والوظيفة محدودتين، لكنها تحمد الله لوجودها أثناء فحوصات أمها الأولية، وعلاج المستشفى، وخلال مرضها القصير. حتى في نهاية حياة جينا، لم يفارقها التفاؤل.

لكنها أدركت حقيقة أنها وصلت إلى نهاية مرحلة من حياتها ولعل هذه هي فرصتها للانتقال وبدء حياة جديدة.

كانت واثقة من أمر واحد، وهو أن خالتها ميغان لن تأسف لرحيلها.

كيف يمكن أن يكون هناك مثل هذا الفرق بين أختين؟ صحيح أن خالتها تكبر أمها باثنتي عشرة سنة، لكن حتى شعور الأخوّة معدوم بينهما. وعندما سألت زو أمها ذات مرة عن هذا الموضوع، أجابتها: «أظن أن ميغان كانت تودّ أن تبقى الولد الوحيد في البيت ومجيئي أنا شكّل لها صدمة وارتباك كبيرين».

ـ ألم ترغب قط في أن يكون لها أولاد؟

شردت عينا أمها وجمدت ملامحها وقالت: «مرة واحدة كما أظن، لكن ذلك لم يحصل... مسكينة ميغان».

كانت ميغان أطول وأنحف من أختها وسمراء البشرة، أما ملامحها فيرتسم عليها الاستياء بصورة دائمة.

لم يكن فيها لمحة من حب الحياة الذي يميز أختها جينا والذي بقي يلازمها ما عدا في لحظات معينة كانت تنطوي فيها على ذاتها وفي عالم خاص مؤلم. لحظات كانت زو تسميها بجفاء «أوقاتها الهادئة».

كانت زو تتساءل أحياناً عن سبب ذلك. وكانت تفترض أنها ذكرى أبيها.

أما خالتها فوضعها مختلف للغاية. كانت السيدة أرنولد تملك كل ما تريده. لم تشعر بحاجة إلى المال قط في حياتها، كما كان زوجها بالغ الرقة واللطف ومحبوباً من الجميع.

كما أن خالتها تملك منزلاً جورجياً جميلاً يحيط به سور مرتفع تخرج منه غالباً لكي تترأس معظم الجمعيات في المنطقة. لكن حتى هذا لم يستطع أن يجعلها سعيدة. ويبدو أن كراهيتها لأختها الصغرى انتقلت إلى ابنة هذه الأخيرة. لكن زو تعلمت أن تعاملها بكل تهذيب غير متوقعة شيئاً في المقابل.

نزلت من الباص عند تقاطع الطرق، ثم تابعت الطريق مشياً. كان النهار لا يزال دافئاً فتنهدت راضية وهي تشمّ العبير الذي ملأ الجو.

وفجأة، توقفت جامدة مقطبة الجبين وهي ترى في الحديقة الأمامية لبيتها لوحة كتب عليها (للبيع). فأخذت تنظر غير مصدّقة إلى ختم مكتب عقارات المنطقة.

لا بد أنّ في الأمر خطأ ما. واجتازت المسافة التي تفصلها عن الكوخ ركضاً.

عندما وصلت إلى البوابة، برزت أديل وسألتها وهي تشير برأسها إلى اللوحة: «هل تعلمين بهذا؟».

وعندما هزت زو رأسها صامتة، تنهدت المرأة: «هذا ما ظننته. عندما جاؤوا هذا الصباح سألتهم فقالوا إنهم يعملون تبعاً لإرشادات مالكة الكوخ. إنها في الداخل الآن، تنتظرك. لقد فتحت الباب بمفتاحها الخاص ودخلت».

ـ هذا كل ما ينقصني.

ودخلت الكوخ والغضب بادٍ على ملامحها.

وجدت ميغان أرنولد في غرفة الجلوس واقفة أمام المدفأة، تنظر إلى الصورة المعلقة فوق الرف.

ترددت زو عند العتبة وأخذت تنظر إليها بحيرة. كانت رسماً غير عادي لا يتماشى مع عادة أمها في اختيار الموضوع. فقد بدا وكأنه مشهد للبحر الأبيض المتوسط... درجات رخامية بيضاء نثرت فوقها زهرات وردية ذاوية، تؤدي إلى شرفة يحيط بها سور تعلو حافته زهرية كبيرة فيها أزهار وردية وبيضاء. وفي خلفية الرسم البحر اللازوردي.

الغريب هو أن آل لامبرت يقصدون دوماً في إجازاتهم موطنهم في «يوركشاير هيلز» أو «كورنوال»، وأمها لم تعرف البحر الأبيض المتوسط.

أحست الخالة بوجود زو فاستدارت إليها بوجه جامد صلب: «ها قد جئت، تأخرت كثيراً».

فردت عليها زو بنفس اللهجة المقتضبة: «كان عليك أن تبلغيني بقدومك يا خالتي. هل ترغبين في فنجان شاي؟».

ـ لا، فهذه ليست زيارة اجتماعية.

وخفق قلب زو ألماً وهي تراها تجلس على مقعد أمها، وحاولت ألاّ تشعر بالاستياء، مذكّرة نفسها بأنه منزل خالتها. وتابعت تقول: «كما

ترين، طرحت الكوخ في السوق للبيع، وأبلغت الوكيل بأن يفتح الكوخ لمن يريد أن يراه، حالاً. وهكذا عليك أن تنقلي هذه الأشياء من هنا».

وأشارت إلى الكتب والتحف الموضوعة على رف المدفأة، وسكتت لحظة عادت بعدها تقول:

ـ وسأكون شاكرة إذا خرجت أنت أيضاً مع نهاية الشهر.

شهقت زو بعجز: «أبهذه البساطة؟».

توترت شفتا ميغان بقسوة: «وماذا كنت تتوقعين؟ لقد سمح زوجي لأمك بأن تسكن هذا الكوخ مدى حياتها فقط. والاتفاقية لم تشملك. لا أظنك كنت تتوقعين البقاء هنا!».

ـ لم أكن أتوقع شيئاً. لكنني ظننتك ستسمحين لي بالتقاط أنفاسي على الأقل.

ـ أشعر بأنك مكثت وقتاً كافياً. وفي نظر القانون أنت تحتلين مكاناً من دون حق.

جاهدت لتمالك نفسها. لا بد أن جورج عرف بهذه القصة. لا بد أن أمه أخبرته بما تنوي ميغان فعله، أو لعله سمع المرأتين تتحدثان في هذا الموضوع ولهذا السبب طلب منها الزواج. وارتجفت وهي تناجيه... آه، يا جورج. لماذا لم تحاول أن تحذرني بدلاً من المراوغة؟

حاولت جهدها أن تقول بشكل طبيعي: «بعض الأثاث لأمي، وأريد أن آخذه معي، وكذلك كتبها ولوحاتها».

رأت نظرات خالتها تتحول إلى اللوحة فوق المدفأة، فقررت أن تمهد لرأب الصدع الذي لا ذنب لها فيه: «ربما تحبين أن تحتفظي لنفسك بلوحة منها، كهدية تذكارية. ولعل هذه اللوحة بالذات أعجبتك».

كادت خالتها تجفل وهي تقول بصوت مرتجف: «هذه اللوحة الرديئة؟ لا أرضى بأن أضعها في بيتي».

حدقت زو إليها وقد أفزعها هذا الغضب والمرارة في صوتها. ثم قالت ببطء:

ـ لماذا؟ لماذا تكرهين أمي إلى هذا الحد يا خالتي؟

ضحكت ميغان فجأة بصوت حاد: «ما الذي تتحدثين عنه؟ أنا؟ أنا أكره جينا، الأخت الكاملة الأوصاف؟ يا للكلام الفارغ! لم يكن مسموحاً لأحد أن يكرهها. أبداً... مهما فعلت ومهما كانت خطيئتها عظيمة، هي المحبوبة المغفور لها دوماً».

ـ إنها ميتة الآن يا خالتي. ومهما آذتك، فهي لم تكن تقصد ذلك بكل تأكيد.

ـ أنت مخطئة. لم يكن لديها أيّ تأثير عليّ، لأنني كنت أعرف حقيقتها. مظهرها البريء الرقيق لم يخدعني قط. وكنت على صواب تام.

وسكتت فجأة ثم عادت تقول: «لكن كل هذا من الماضي، والمستقبل هو المهم. سأبدأ ببيع هذا الكوخ. فاستأجري من ينقل لك كل هذه القمامة، أو خذيها إلى محل بيع الأشياء القديمة المستعملة. أريد هذا البيت خالياً عندما يأتي أول شارٍ لرؤيته ولنبدأ بهذه».

ووقفت ثم انتزعت اللوحة المعلقة فوق المدفأة، وألقت بها بازدراء على السجادة. وصدر عنها صوت تحطم.

ركعت زو على ركبتيها هامسة: «الإطار. لقد كسرته.. لِمَ فعلت هذا؟».

هزت المرأة كتفيها: «خشب رخيص وصناعة غير متقنة».

فقالت زو وهي تكاد تختنق: «مهما يكن، ليس لديك الحق... لا يحق لك في أن تلمسيها».

ـ هذا ملكي أفعل فيه ما أريد. أريدك أن تخلي البيت وسأعود آخر الأسبوع لكي أتأكد من تنفيذك لطلبي هذا، وإلا سأتصرف وأخلي البيت

بنفسي.

وخرجت، وبعد لحظات سمعت زو صوت الباب يقفل. وما لبثت أن دخلت أديل من باب المطبخ.

ـ جيف يرعى الأطفال. رأيت السيدة تخرج فجئت لأرى إن كنت بخير.

ـ أشعر وكأنني تلقيت ضربة. يا إلهي إنها سافلة. لا... لا أستطيع أن أصدق ذلك.

ـ سأضع إبريق الشاي على النار. ماذا حدث للوحة التي كانت فوق المدفأة؟

ـ ألقت بها على الأرض. بقيت هذه اللوحة مع الأشياء القديمة حتى انتقلت أمي إلى هنا، ولكن...

وسكتت تعوزها الكلمات، فقالت أديل: «المشهد من اليونان أليس كذلك؟ نالت أختي الشهادة بامتياز فذهبنا إلى «كريت» السنة الماضية وقبلها إلى كورفو».

فهزت زو كتفيها: «المشهد في مكان ما من المنطقة كما أظن».

ثم وقفت وحملت الصورة بإطارها المكسور ووضعتها على منضدة باحتراس:

ـ لكننا لم نذهب قط إلى اليونان، لأن أبي لا يحب الأجواء الحارة.

ـ حسناً، لعلها نسخت الصورة عن بطاقة بريدية أرسلها لها شخص ما.

ـ كنت دوماً أنوي أن أسألها عنها، لكنني لم أفعل أبداً.

وأثناء احتسائهما الشاي في المطبخ، سألتها أديل: «متى ستغادرين الكوخ؟».

ـ آخر الشهر، وهي حاسمة بالنسبة إلى هذا.

فكرت الجارة قليلاً: «أتظنينها مجنونة؟»

- إنها غير منطقية فقط عندما يتعلق الأمر بأمي.

- حسناً، لعل الذنب ليس ذنبها تماماً. جدتي تتذكرها صغيرة، وهي تقول إنها كانت طفلة جميلة، وقرة عين والديها، ثم جاءت أمك، فأصبحت هي المفضلة لديهما. و«الفتاة الأجمل» أيضاً. وهذا أمر لا يتقبّله الأطفال بسهولة. لعل الأمر مجرد غيرة منذ البداية.

فقالت زو بعد تفكير: «ربما هذا صحيح. لكن شعوراً يراودني بأن ثمة ما هو أكثر من ذلك».

- أنت صورة عن أمك عندما كانت في عمرك. تقول جدتي إنهما ذهبتا معاً في إجازة وحينذاك تصرفت ميغان مع أختها وكأنها أم وابنتها، ولعل هذا ما سبّب المتاعب.

وسكتت، ثم سألتها: «ماذا ستفعلين؟ وكيف ستتدبرين أمورك إذا طردتك من البيت؟».

فأجابت زو عابسة: «سأبحث عن شقة غير مفروشة».

- أو حتى عن بيت صغير، ستفتقدين الحديقة.

فارتجفت شفتا زو: «نعم، وأشياء أخرى كثيرة».

وأرغمت نفسها على الابتسام: «لعل خالتي تسدي إليّ معروفاً، فهذا ربما هو الحافز الذي أحتاجه للتحرك».

- إلى مكان لا تستطيع الملكة الشريرة أن تقتحمه بمفتاحها الخاص. ولكني سأفتقدك.

- حسناً، لن أرحل على الفور. عقد عملي ينص على أن أعمل شهراً كاملاً بعد الإستقالة، ولكن بامكاني أن أبحث... وأقرر.

- ألا تظنين أنّ فارساً على حصان أبيض قد يأتي لإنقاذك؟

ردّت بوجه جاد: «ليس في بلدة «بيشوبس كروس» فالأحصنة البيضاء

لا تتلاءم مع نظام الطرق ذات الاتجاه الواحد».

أنهت الشاي ووضعت الفنجان في الحوض: «من الأفضل أن أبدأ بنقل أغراض أمي من البيت وخزنها».

- خصوصاً بعد ما حصل لتلك اللوحة. وآسفاه عليها، فهي جيدة.

- لم تتلف كلياً. إنها تحتاج فقط إلى إطار جديد وسآخذها معي الآن.

- سيتعبك حملها في الباص. يمكنني أن أطلب من جيف أن يأخذها معه وهو في طريقه إلى عمله، وفي فرصة غدائك يمكنك أن تذهبي إلى الحانوت وتختاري إطاراً آخر! اربطيها بعد لفها بالورق وسآخذها معي الآن.

- هذا لطف منك يا أديل...

طالما كانت أديل جارة طيبة، كما أخذت زو تفكر وهي تبحث عن خيط.

عندما عادت زو إلى غرفة الجلوس، قالت أديل عابسة:

- لقد أتلفت خالتك اللوحة، حتى أنّ البطانة الخلفية تمزقت.

وحاولت أن تعيد تسوية البطانة لكنها توقفت: «انتظري لحظة. ثمة شيء في الداخل، انظري...».

ثم دسّت يدها في ظهر الصورة وأخرجت مغلفاً قديماً.

ناولته إلى زو التي أخذت تزنه في يدها وهي تنظر إليه بشيء من الضيق. وما لبثت أديل أن قالت ضاحكة: «حسناً، ألن تفتحيه؟ لو كنت مكانك لما استطعت الانتظار».

فقالت زو ببطء: «نعم، لكن هذا المغلف هنا منذ زمن طويل، كما يبدو من مظهره. وبما أن أمي وضعته هنا، فأنا أعجب لماذا لم تخبرني عنه، إذاما أرادت أن أعثر عليه؟».

- أظنها نسيت.

ـ كيف تنسى والصورة معلقة منذ انتقلت إلى هنا؟ كلا، إنه شيء تريده أن يبقى سراً، يا أديل. لم أكن أظن أن ثمة أسراراً بيننا.

وحاولت أن تبتسم، فربتت أديل على كتفها: «سأتركك الآن لكي تقرري بنفسك ما عليك أن تفعليه. أما بالنسبة إلى إعادة تأطير الصورة، فيمكنك إرسالها مع زوجي في وقت آخر إذا بقيت مصممة على ذلك».

وعندما أصبحت زو وحدها، جلست على الأريكة. لم يحمل المغلف أيّ إشارة مثل (إلى ابنتي) أو (يفتح بعد موتي).

إنه سرّ يخصّ جينا لامبرت. ولو أن خالتها لم تفقد أعصابها وتلقي بالصورة على الأرض، لبقي المغلف حيث هو.

ربما من الأفضل أن يبقى المغلف مقفلاً. ربما عليها أن تحترم رغبة أمها وتلقي بالمغلف في القمامة من دون أن تفتحه. لكن زو رأت أنها إذا فعلت ذلك، فستبقى دوماً تتساءل ويتآكلها الفضول...

وأخيراً، مزقت المغلف وأخرجت محتوياته فوجدت أنها مجموعة من المستندات التي تبدو قانونية وصور فوتوغرافية.

فتحت المستندات أولاً، وارتفع حاجباها وهي تراها مكتوبة بلغة أجنبية، افترضت أنها يونانية. ما الذي جعل أمها تحتفظ بهذه الأوراق؟

وضعت الأوراق جانباً وأخذت تنظر إلى الصور. كان معظمها مشاهد غريبة... شارع في قرية تحف به بيوت بيضاء... سوق تئن منصاته تحت ثقل الفاكهة... امرأة ترتدي السواد تجر حماراً محمّلاً بالحطب.

لكن إحدى الصور كانت مختلفة تماماً. حديقة تحيط بها أشجار صنوبر، يقف تحت إحداها رجل يرتدي ملابس عادية مؤلفة من قميص سروال قصير. كان وجهه في الظل، لكن غريزتها أنبأتها بأنه ليس إنكليزياً، وأنه يتبادل النظرات مع المصور باسماً.

وأدركت أنه كان يبتسم لأمها.

التفتت إلى صورة أبيها الموضوعة على منضدة بجانب كرسي أمها، لكنها أدركت أن صورة ذلك الرجل في الظلال ليست لجون لامبرت أبيها الذي كان أطول وأنحف. أما الرجل في الصورة فيتميز بقوة وحيوية بدائية لم تكن تبدو في أبيها.

وابتلعت زو ريقها. إنها لا تفهم أياً من هذا، وربما لا تريد أن تفهم.

قلبت الصورة علّها تجد حلاً لهذا اللغز... ملاحظة ما أو اسم... لكنها لم تجد شيئاً. فوضعتها جانباً والتفتت إلى الأوراق الأخرى.

وجدت أوراقاً عدة رقيقة مشبوكة معاً. وعندما فتحتها أدركت بحماسة فجائية أنها ترجمة تلك الأوراق الغريبة التي حيرتها.

قرأتها بلهفة ثم توقفت، وعادت إلى البداية ورأسها يدور. أعلمتها الأوراق بلهجة رسمية، بأن هذه الوثائق هي هبة حصلت عليها أمها، وهي عبارة عن «ڤيللا دانا» قرب مكان يُدعى «ليڤاسي» في جزيرة تانيا.

تملّك زو الذهول، ليس بسبب هذا الاكتشاف بل بسبب ما يعنيه.

إنها هدية لم تتحدث عنها أمها قط، كما لم تستعملها بكل تأكيد. وبدا واضحاً أنها لم تشأ أن يعلم بها أحد. وإخفاؤها لها في اللوحة أصبح له، فجأة، معنى خاص.

هل هذه ذكرى عزيزة لكنها سرية؟ هذا ما يبدو حتماً. خصوصاً أن اللوحة لم تُعلّق قط في حياة أبيها.

قرأت الترجمة للمرة الثالثة. لم يرد اسم مقدّم الهدية، لكنها افترضت أنه في الأوراق الأصلية. كما لم تجد أيّ قيود على امتلاك الڤيللا. وبهذا تكون جينا حرة في أن تذهب للمطالبة بها أو بيعها كما تشاء.

ولم يكن في الأوراق الأخرى ما يشير إلى أنها تخلصت من «ڤيللا

دانا».

رأت زو أن أمها تركت لها كل شيء. وابتلعت ريقها. لم تصدق أنها تملك الآن ڤيللا في اليونان.

رأت نفسها ترتجف رغماً عنها، كما أخذ قلبها يخفق كالطبل.

وعندما هدأت، أحضرت الأطلس، وأخذت تبحث عن جزيرة تانيا فوجدتها. غضنت أنفها وهي ترى أنّ الخريطة لا تظهر الكثير. لكن شقيقة أديل تعمل في وكالة سفريات، وستخبرها كل ما تريد معرفته وكيف تصل إلى هناك لأنها ستذهب إلى تانيا من دون شك. عليها أن ترى بنفسها «ڤيللا دانا»، إذا كانت لا تزال موجودة. وعلى أيّ حال، كانت الڤيللا ملكاً لصاحبتها الغائبة، ولعلها الآن في حالة يرثى لها من الإهمال.

لن تحتفظ بالڤيللا طبعاً، وإذا كانت صالحة للسكن فستعرضها للبيع، أما إذا كانت منهارة، فستتركها، كما فعلت أمها قبلها.

لكنني لن أذهب لرؤية الڤيللا وحسب بل لأجد أجوبة عن بعض الأسئلة أيضاً. أريد أن أعرف الحقيقة، مهما كانت مؤلمة، قبل أن أبدأ حياة جديدة.

تناولت صورة الرجل الذي في الظل وأخذت تحدق إليه متسائلة وخائفة في الوقت نفسه. من تراه يكون؟ وما هو دوره في هذا اللغز؟

تنهدت وأعادت الصورة إلى المغلف مع بقية الأوراق، وهي تحدث نفسها بأنها ستعثر عليه، بشكل ما، وفي مكان ما، ومهما كلفها ذلك.

وحاولت أن تتجاهل الرجفة اللاإرادية التي اكتسحتها.

٢ ـ علّة الوجود

كان حاجز المركب ساخناً تحت ذراع زو العارية، فيما ظهرت أمامها معالم جزيرة «تانيا» الصخرية من وسط مياه البحر المتلألئة.

لم تخبر أحداً عن هدف زيارتها لهذه الجزيرة ولا حتى أديل. وكانت قد ادّعت أن المغلف يحتوي على مجرد تذكارات لإجازة قامت بها وبالتالي لا تستحق الذكر. وقالت ضاحكة: «إنني بحاجة إلى إجازة، فلماذا لا أحاول اكتشاف المكان الفاتن ذاك؟».

فقالت أديل تحذرها: «حسناً، لا تسمحي لنفسك بالافتتان بأحدهم ولا تدعي أي فاتن من تلك البلاد يغريك بالصعود إلى مركبه. لا نريد أن نفقدك، نريدك أن تعودي إلينا».

لكنها ابنة أمها، كما أخذت زو تفكر بجفاء.

وكانت قد أخبرت فانيسا أخت أديل عن قصة جزيرة أمها المفضلة عندما حجزت لها للسفر. ورغم أن فانيسا حاولت إقناعها بالسفر إلى مكان أكثر حيوية، مشيرة إلى أن جزيرة تانيا لم تكن قط منتجعاً سياحياً.

حاولت زو أن تقول بشكل عفوي: «أعتقد أن في ليڤاسي فندقاً يدعى «فندق ستافروس»، هل بإمكانك أن تحجزي لي فيه؟».

فأومأت فانيسا بشيء من الاستسلام: «شركة «إجازات المغامر» تتعامل معه. أماكن شاغرة، مفاجآت، غرف بحمامات وشرفات ومناظر بحرية».

أخذت زو تفكر في تلك الشرفة الأرضية بدرجاتها الرخامية والبحر

خلفها وابتسمت: «هذا مثالي».

كانت قد عانت من استياء جورج الصريح من رفضها الرقيق والحازم لطلبه الزواج منها. وقال لها متألماً: «لكن لم يسبق لك السفر قط».

فردت عليه بنفس الرقة مع الحزم: «لا، يا جورج، لم يسبق أن سافرت في الماضي».

- إلى أين ستذهبين بالضبط؟

حاولت أن تكون عفوية فهزت كتفيها وقالت بمرح: «فكرت في زيارة بعض الجزر».

كانت تكره أن تكذب على جورج، لكنها تعلم أن أمه ستعرف وجهتها منه قبل أن تضع له العشاء. وبالتالي، ستعرف خالتها ميغان وجهتها. وبحسب رد فعل خالتها المتطرف على اللوحة، ستجد هذا خبراً سيئاً.

وفكرت في أنه من المؤسف ألاّ تستطيع الذهاب إليها وسؤالها عن الأمر، إذ لا بد أنها تعلم.

كان هناك أمر آخر لم تخبر به جورج، وهو أنها قدمت استقالتها، وهذا يعني أنها ستغادر الكلية في عيد الميلاد، كي تحاول الحصول على وظيفة في منطقة أخرى. وكان هذا تحدياً ينتظرها عند عودتها من اليونان.

أخرجت زجاجة ماء من حقيبة كتفها، ثم شربت بنهم بالغ. وعندما أعادت الزجاجة سمعت صوت حفيف الورق يذكرها بغرض زيارتها. وكانت قد أحضرت معها الأوراق كلها، اليونانية والمترجمة، والصور أيضاً. لكنها لم تكن تنوي الشروع بالمطالبة على الفور.

حدثت نفسها بأن عليها أن ترى المكان، إذ يمكن للمالك الأصلي أن يلغي الهبة التي قدمها منذ سنوات. وإذا اتضح لها أن تقديم الفيللا هدية كان مجرد نزوة من شخص ما وتراجع عنها فستتمتع بإجازتها من دون أي

ضرر.

على أيّ حال، بدا الأمر وكأنه حكاية أسطورية. «فيللا دانا»!

وأخذت تفكر في أن هذا هو بحثها الخاص... «الأوديسة» الخاصة بها.

* * *

كان ميناء جزيرة «تانيا» صغيراً تشغله المراكب الصغيرة والشراعية، وليس اليخوت الفخمة. وعلى رصيف الميناء أمامها، بدت المظلات المخططة للفنادق ولفتها مبنى كبيراً بثلاثة طوابق يتألق في الشمس بلونه الأبيض، عرفت مسبقاً من صورته في النشرات السياحية أنه «فندق ستافروس».

كان الوقت عصراً، والحرّ شديداً، فارتدت زو بنطلوناً أبيض وبلوزة كحلية معقودة عند الخصر، ومشطت شعرها على شكل ضفيرة غليظة، ووضعت على رأسها قبعة من الكتان عريضة الحافة.

كانت واعية لنظرات المارة تتفحصها بمودة واهتمام. وعندما سارت نحو الشاطىء، ومضت تسير باحتراس على ألواح الخشب الواهنة المصفوفة، ابتسم لها القبطان ابتسامة استحسان واسعة.

رأت أن لا فائدة من أن تخفي نفسها، فسارت مباشرة إلى الفندق وصعدت درجتين إلى الشرفة الأرضية حيث صُفّت الطاولات والكراسي وأحواض النباتات. بدا مكتب الاستقبال خالياً، لكن زو سرّها أن تقف لحظة، في الجوّ المكيّف. وفجأة، انفرجت الستارة الخلفية وخرجت من ورائها امرأة باسمة، ممتلئة الجسم، حمراء الشعر تقدمت إليها تحييها بعفوية: «مرحباً، لا بد أنك الآنسة لامبرت. أنا شيري».

فقالت زو وهي تصافحها: «وأنت بريطانية؟ لم أتوقع هذا».

- وأنا أيضاً لم أتوقع أن أتعرف منذ سنتين إلى يوناني يملك فندقاً

وأتزوجه.

وناولت زو بطاقة تسجيل وقلماً وهي تتابع: «سآخذك إلى غرفتك، دعي الكيس هنا وسيحمله ستافروس إليك بعد لحظة».

سألتها زو وهي تحسب في ذهنها عمره: «ستافروس الذي أخذ الفندق عنه اسمه؟».

لكن شيري هزت رأسها وهي تصعد السلم أمامها: «ذاك كان عمه... شخصية مميزة. زوجي ستافروس استلم الفندق عندما قرر عمه أن يتقاعد منذ سنوات».

فقالت زو وهي تستودع في ذاكرتها هذه المعلومات: «تبدو حياة رائعة».

ـ ها قد وصلنا.

وفتحت شيري الباب، ساحة لزو بأن تتقدمها إلى غرفة منعشة البرودة، مغلقة النوافذ. فتحت شيري الستائر النوافذ فبدا لون الجدران العاجي الذي يتلاءم مع لون الأرض المرصوف بالآجر. وقالت زو بإعجاب: «ما أجملها»!

ـ إذا احتجت إلى بطانية، وهذا ما أشك فيه، فاطلبي ذلك وحسب.

وفتحت شيري باباً آخر: «وهذا هو الحمام. وبإمكانك أن تحصلي على ماء ساخن متى شئت... هل ترغبين في شراب بارد؟ شاي بالليمون؟».

ـ الشاي حسن جداً، شكراً.

وعندما انفردت زو بنفسها، خرجت إلى الشرفة الصغيرة وسرّها أنها تطل على الميناء.

رأت السبب الذي جعل أمها تعشق هذا المكان بصرف النظر عما حدث لها أو لم يحدث.

أعادها إلى الواقع طرق على الباب. كان ستافروس أسمر، ذا سلوك

دمث هادىء:

ـ زوجتي تريد أن تعلم إذا كنت تريدين الشاي في غرفتك أم في الفناء.

ـ بل في الأسفل. أنا بحاجة إلى دقائق قليلة أفتح فيها حقيبة ملابسي.

كان الفناء خلف الفندق مظللاً بعريشة عنب ضخمة، فجلست زو في زاوية تحتسي الشاي وتفكر في ما عليها أن تفعله. في البداية، عليها أن تبحث عن «العم ستافروس» وترى إن كان يتذكر أمها. سترحب بأي معلومات يمكن أن تحصل عليها.

اندفع من باب الفندق كلب ضخم واتجه إليها، ثم وقف وهو يلهث بمودة.

قالت له بلطف: «أحسنت»..

ـ لا تدعي أرخميدس يزعجك.

تعالى صوت شيري يحذرها وهي تقترب لتأخذ صينية الشاي.

ـ ما الذي جعلكم تسمونه أرخميدس؟

ـ لأنه دخل مرة إلى حوض الاستحمام مع ستافروس ففاضت المياه في كل مكان.

فقالت زو ضاحكة: «بمناسبة الحديث عن موضوع المياه، أين توجد أفضل الأماكن للسباحة؟».

ـ هناك شاطىء المدينة. استديري إلى الشمال ثم استمري في السير، إنه شاطىء لا بأس به ولكنه قد يزدحم كثيراً. تجدين بعض الشواطىء الجيدة في الناحية الأخرى من الجزيرة، لكنك لا تصلين إليها إلا بالقارب.

وعبست وهي تلقي حولها نظرة سريعة: «عدا عن ذلك... أصحاب الفيللات لا يمكثون هنا طوال الوقت. ونحن نستغل ذلك أحياناً فنستعمل

شواطئهم عند غيابهم، ولكن لا تخبري ستافروس أنني قلت هذا فسيغضب».

وخفضت صوتها وهي تُسرّ إليها: «في الواقع، ثمة فيللا تشرف على كهوف جميلة جداً، لكنها غير مأهولة ولم تُسكن قط. أقصدها أحياناً رغم أن ستافروس لا يسره ذلك لأنه يحترم عزلة الآخرين».

فقالت زو وهي تبتلع ريقها: «ما دامت غير مأهولة، فالمكان مثالي. ربما يمكنك أن ترشديني إليها».

وسكتت قليلاً ثم عادت تسأل: «هل لذلك المنزل اسم؟».

أومأت شيري وردّت: «إنها «فيللا دانا». ويمكنك أن تذهبي إليها مشياً.

عندما أصبحت زو وحدها، فكرت بسرور في أنها سوف تقصدها في الغد.

* * *

كان اللوح الخشبي الذي يغطيه العشب على شكل سهم مصوّب نحو درب ضيق والكلمات الباهتة «فيللا دانا» المحفورة عليه تكاد لا تُقرأ، كما نبهتها شيري بهدوء أثناء تناولها الفطور المكوّن من الخبز الساخن والعسل واللبن.

وقفت وهي تشدّ على حقيبة كتفها التي تحتوي على منشفة، وكريم ضد حروق الشمس.

ورغم أنها كانت تنتظر هذه اللحظة، بفارغ الصبر، إلاّ أنّ رغبة قوية في أن تتابع طريقها تملّكتها. رغبة في أن تدع الماضي يرتاح بسلام، رغبة في أن تستسلم لسحر الجزيرة الكسول، وتستمتع بإجازتها.

لكن هذا لن يمحو فضولها وتساؤلاتها. وعندما تعود إلى بيتها وترى لوحة أمها معلقة في غرفتها ستلوم نفسها إذا أضاعت هذه الفرصة

الذهبية.

استدارت بعزم جديد، وسارت في الدرب الموحل. كان الهواء ساكناً للغاية، والسماء تبدو بمظهر ضبابي خفيف ينبيء عن ارتفاع في الحرارة لاحقاً.

كانت ترتدي ثوباً رقيقاً أزرق اللون بصدر مكشوف ومن دون أكمام، فوق ثوب السباحة وقد رفعت شعرها على أعلى رأسها.

وبعد قليل، ظهر المنزل أمامها أشبه بجوهرة بجدرانه البيضاء الناصعة وسطحه المصنوع من القرميد.

وقفت زو وقد اشتدت يدها من دون وعي منها على حمالة كيسها. وعلى الفور، بدت أمامها بركة سباحة تتألق بلونها الفيروزي وتصعد منها درجات عريضة تؤدي إلى باب زجاجي. وخلف الباب، رأت غرفة بأعمدة منخفضة هي أشبه بردهة منزل روماني، منعشة البرودة بفضل الرخام والنباتات السامقة الخضراء ومؤثثة بكراسي مريحة بيضاء وأرائك.

دارت حول بركة السباحة وصعدت الدرجات ثم حاولت أن تفتح الباب لكنه كان مقفلاً. عندما وصلت إلى أسفل مجموعة أخرى من الدرجات، وقفت فجأة. فقد كانت مألوفة إلى حد يجعلها قادرة على ارتقائها أثناء نومها. أدركت وقد انحبست أنفاسها، أنها تعرف هذه الدرجات الرخامية البيضاء التي تناثرت عليها البراعم الذاوية، الدرجات التي تؤدي إلى الشرفة الأرضية، ومن خلفها البحر الفيروزي الحالم.

صعدت الدرجات بهدوء وحزن إلى الشرفة الأرضية. وجدت نفسها تقف في ممر يحيط بالمنزل ويعجّ بالأزهار والنباتات المتدلية من فوق الدرابزين. خلفها، كانت الأبواب الزجاجية تحجب الغرف الأرضية تماماً. ولكن ماذا كانت تتوقع؟ أن يبقى المكان مفتوحاً لها للتفتيش! حيث الحبيب ينتظر؟

وحدثت نفسها وهي تسير على الشرفة، بأنه كان عليها أولاً أن ترى

محامياً، لتتحرك بعد أن تطمئن إلى وضعها القانوني.

وجدت المدخل الرئيسي عند المنعطف، وهو باب خشبي صلب منحوت، نمت بجانبه بعض الورود النضرة التي تتدرج ألوانها من التبني الباهت إلى الذهبي الداكن.

ومن دون أن تدرك السبب مدت يدها ولمست أحد رؤوس مطرقة الباب الذهبية، وكأنها تعويذة تجلب الحظ. ثم أمسكت بالمقبض الحديدي الثقيل للباب وحاولت أن تفتحه، وتملكتها الحيرة عندما انفتح الباب فعلاً وبصمت. كانت «فيللا دانا» ترحب بها حقاً.

دخلت وأغلقت الباب خلفها، ثم وقفت لحظة ترهف السمع علّها تسمع وقع الأقدام، أو صوت إغلاق باب أو سعال للتنبيه... أي صوت يحدثه وجود إنسان ويفسّر سرّ الباب المفتوح. لكنها لم تسمع شيئاً.

كل شيء لا يزال جديداً، ما من أحد اتكأ على هذه الوسائد أو أشعل النار في المدفأة أو تناول وجبة طعام على المائدة.

وجدت مطبخاً مجهزاً بالكامل يحتوي على ثلاجة ضخمة وغرفة للغسيل، لكنه بدا فارغاً وكأنه متجمد إلى أن يحين الوقت المناسب، فينفكّ عنه السحر.

تنفست بعمق، ثم صعدت السلم الرئيسي وقد تملكها الضيق حين اكتشفت أنها تسير على أطراف أصابعها.

أول غرفة نوم دخلتها هي الغرفة الرئيسية. كانت معتمة وباردة بنوافذها المغلقة، فسارت إليها وفتحتها ثم استدارت تنظر إلى الغرفة، فانخطفت أنفاسها.

كانت غرفة فسيحة بلون مشمشي للجدران وعاجي للأرض. غطاء السرير الحريري كان عاجياً أيضاً على غرار ستائر النوافذ. وقد ألحقت بها غرفة للملابس، تحتوي على مناشف وأدوات للزينة... كل غرض في مكانه... إنه قصر مسحور ينتظر أميرته لتفك سحره... ولكن إلى متى؟

عادت إلى باب الشرفة ففتحته وخرجت إلى الشرفة. رفعت وجهها إلى النسيم الرقيق، وأخذت تتنشق الشذا الذي وصل إليها فشعرت بأنها أصبحت جزءاً من هذا السحر.

وأخذت تفكر. هل من الممكن أن يكون هذا كله ملكي؟ وتملكها إحساس بأنها ليست وحدها، وأن ثمة شخص على الشرفة السفلى.

جمدت مكانها لحظة، ثم أخذت تسترق النظر بحذر بالغ.

رأت رجلاً يسير متمهلاً على الشرفة الأرضية، يقطع الذاوي من الورود في الأحواض الحجرية.

وتملكها الارتياح... إنه البستاني، أو واحد من فريق الصيانة المستخدم كي تبقى «فيللا دانا» في حالتها الممتازة هذه.

كان طويلاً، ذا شعر جعد أسود يتألق في الشمس كالحرير، وبشرة برونزية. رأته عريض الكتفين، قوي العضلات.

إنه رائع... وصدرت عنها شهقة خفيفة سبق أن نبهتها إليها أديل مرة.

لكنها، لم تر طبعاً سوى ظهره. وقد يكون أحول، معقوف الأنف.

على أيّ حال، شكله ليس من شأنها. ليس عليها إلا أن تخرج من هنا قبل أن ينظر إلى أعلى ويراها.

وباحتراس بالغ، تراجعت إلى الغرفة ثم أغلقت النوافذ. أحدث ذلك صوتاً كالهمس، لكن خيال زو ضخّم الصوت في سكون هذا الصباح. توقّعت أن تسمع صياحاً من الأسفل... لكنها لم تسمع شيئاً. عضت شفتها ثم تابعت إغلاق النوافذ. وقد تملكها شيء من الارتياح.

يبدو أن عمله جعله يبتعد إلى آخر الشرفة، بعيداً عن الباب الرئيسي. ولذا، إذا أسرعت فيمكنها أن تخرج من الفيللا إلى كرم الزيتون من دون أن يكتشف أمرها.

ستكتفي بهذه الزيارة الوحيدة، تعهدت بذلك لنفسها بصمت وهي تخرج من غرفة النوم وتغلق الباب خلفها بهدوء. وعلى أيّ حال، لقد رأت كل ما تريد رؤيته.

من الآن فصاعداً، ستكتفي بشاطىء المدينة، وتدع محاميها يتحرى عما إذا كانت الفيللا إرثاً لها.

وابتسمت لنفسها... يمكنها أن تحلم...

كانت تنزل درجات السلم حين شعرت مرة أخرى بأنها ليست وحدها. كان يقف متكئاً على الدرابزين أسفل الدرجات... ينظر إليها بشبه ابتسامة عابسة.

شهقت لرؤيته وجمدت مكانها. حدثتها غريزتها بأن تستدير وتعود راكضة من حيث أتت، لكن التعقل منعها. فهذا السلم هو الوحيد المؤدي إلى الخارج، وآخر ما تريده هو أن تجد نفسها مع هذا الغريب نصف العاري في غرفة نوم.

تملكها الخوف، لكن حواسها سجّلت أموراً أخرى وهي أنّ هذا الرجل الذي يواجهها بمثل هذه الغطرسة الباردة جذاب بقدر ما حدثتها غريزتها. ربما لم يكن وسيماً بالشكل المتعارف إليه، فأنفه أكثر دقة مما ينبغي ما جعل ذقنه وفمه يبدوان أكثر صلابة، كما بدت عيناه مظلمتين للغاية. وشعرت وهي تنظر إليهما وكأنها تحدّق إلى ليلة حالكة، وأحسّت بتوتر يكاد يخنقها.

قال بهدوء: «كاليمارا!».

ربما... وحبست أنفاسها. قد تجد وسيلة تتخلص بها من وضعها هذا، فبسطت يديها، محاولة أن تضحك معتذرة: «آسفة لم أفهم. أنا لا أتحدث اليونانية».

هز كتفيه: «ستتحدث بالإنكليزية إذن. أخبريني عما تفعلينه هنا؟».

فقالت بسرعة: «أنا لست لصة».

- لا. فما من شيء هنا يمكنك أن تسرقيه.

ونظر إليها مقيّماً ثوبها الأزرق الرقيق وحقيبة الشاطىء المصنوعة من الخيش، وأضاف قائلاً:

- ... أو تخفيه.

وتفحّصها مرة أخرى: «ولهذا، أسألك مرة أخرى عن سبب حضورك إلى هنا».

- ذكر البعض أن ثمة بيت للبيع في هذه الناحية، فظننته هذا لأنني رأيته خالياً.

نظر إليها بثبات وسخرية: «لا، ليس هذا البيت. ولا يمكن أن يخبرك أحد أنه للبيع».

- ألا تظن أن المالك قد يعرضه للبيع من دون أن يخبرك؟

- لا، لا يمكن لهذا أن يحدث، أيضاً.

- حسناً، إنه بيت رائع الجمال. ربما يرغب صاحبه في أن يؤجره.

- أليس لديك مكان تقيمين فيه؟

- بلى، لدي طبعاً. لكن هذه الجزيرة جميلة جداً وقد أعود فأسكن فيها مدة أطول.

- متى... وصلت؟ أمس؟

- العثور على شيء جميل لا يستغرق وقتاً طويلاً، وكذلك الرغبة في المزيد.

نظر إليها بسخرية... نظرة تثير الاضطراب: «حسناً، لقد اتفقنا على شيء، على الأقل».

وضحك عندما رأى وجهها يحمرّ فقد انتبهت فجأة إلى سمرة جسده

العاري المعروض وإلى قلة ما تلبسه هي أيضاً.

تمنت من كل قلبها لو تجلس الآن إلى طاولتها تحت عريشة العنب، وقد أنهت فطورها وأخذت تفكر في الذهاب إلى شاطىء المدينة وحسب. فهي معرضة الآن للخطر، وكل عصب فيها يشعر بذلك.

وأخذت تدعو الله بصمت أن ينعم عليها بالخروج من هنا سالمة.

وتابع يقول ببساطة: «دعيني أخبرك حقيقة الوضع. أظنك نزيلة في «فندق ستافروس»، وأن زوجة ستافروس أخبرتك بأن الخليج الصغير الذي يجاور هذا المنزل صالح للسباحة. فهي نفسها تأتي إلى هنا... ليس دوماً ولكن بما يكفي، ظناً منها أن لا أحد يعلم. عندما وصلت إلى هنا، ولأنك امرأة، لم تتمكني من كبح فضولك. وهكذا، وجدت باباً مفتوحاً فدخلت».

كرهت نفسها لاحمرار وجهها. وكرهته أكثر لتسببه بذلك. وقالت ببرودة: «أنت على صواب إلى حدّ ما. ولكن فضولي ثار عندما سمعت أن المنزل خالٍ، لأنني في الواقع قد أهتم... بشرائه».

ـ وقد أخبرتك بأنه ليس للبيع.

فهزت كتفها: «أحقاً؟ حسناً، هذا ليس موضوعاً أناقشه مع أجير».

وسكتت لتسمح له بأن يستوعب ما تقول. ولكن أغاظها أن ترى ابتسامته تتسع، فتابعت:

ـ هل المالك في الجزيرة حالياً؟

ـ لا، إنه في أثينا.

أرادت أن تلوّح في وجهه بأوراق المنحة لكن الحذر منعها. فقد رأت أنّ أوان ذلك سوف يحين، والانتظار سيجعل الأمور أحلى. وعقدت النيّة على أن تكون أول جملة تتعلمها باليونانية هي (أنت مطرود)!

قطبت جبينها قليلاً، محدثة نفسها بأنها استردت صلابتها...

وتعمدت أن يكون الحديث بينهما رسمياً جاداً.

ـ هذا مؤسف. لكن يفترض أن أجد شخصاً في الجزيرة يمكنه أن يخبرني كيف أتصل به.

ـ نعم. يمكنك أن تسأليني أنا.

كان وجهه رزيناً، لكن صوته ارتجف هزلاً، ما جعلها تشعر بالضيق.

رفعت رأسها وقالت بحدة: «لا أظن أنه عليّ أن أتصل به عن طريق البستاني».

فقال برقة: «لكنني لست مجرد بستاني هنا. فأنا أقوم بأعمال كثيرة لحسابه. ولكن إذا شئت أن تتحدثي إليه شخصياً، فسيكون في الجزيرة قريباً. ربما خلال أسبوع كما أعتقد».

ـ ويقيم هنا؟

فأجاب بعد توقف بسيط: «لا. إنه لا يقيم هنا أبداً. لديه منزله الخاص وهو قريب من هنا».

ـ هذا مؤسف، لأنه بيت رائع. لكنه سينهار إذا لم يسكن فيه أحد... ويحبه.

ـ أنت مخطئة. الشيء الوحيد الذي لم ينقص هذا المنزل هو الحب. إنه موجود داخل كل جدار، وفي كل حجر، وكل لوح خشب. الحب هو علّة وجوده.

ارتعشت للمشاعر المحمومة المفاجئة في صوته، ولنبرة الغضب أيضاً. فقالت بشيء من التردد:

ـ سأنتظر إذن... ثم أتحدث إليه عندما يحضر... والآن، من الأفضل أن أذهب.

ـ إلى أين؟

مرّت تلك اللحظة الغريبة وعاد يبتسم من جديد، وهو يتأملها: «إلى

البحيرة للسباحة كما كنت تنوين؟».

عضت شفتها: «لا، تلك كانت فكرة سيئة. وأنا آسفة».

ـ لماذا؟ البحر دافىء والرمال مغرية ولن يزعجك أحد.

لكن سبق لها وانزعجت، وثارت كل خلية في كيانها. وسخرت من نفسها لتأثرها بيوناني وسيم. يا له من أمر محزن، ويبعث على الخزي!

هزت كتفيها، محاولة أن تبتسم: «لا بأس...».

فقال: «أنا واثق من أن مخدومي يتمنى أن تستمتعي ببحيرته. ثمة طريق من الشرفة سأريك إياه».

ـ أنا حقاً لا أظن...

ـ هل هذا هو سبب قدومك إلى جزيرة تانيا؟ أن تظني؟

وانتصب متمهلاً، وهو يفسح لها الطريق لتمر: «توقفي عن الظن إذن، وتعلمي الاسترخاء... ثم اشعري».

ـ ربما... لكنني لا أريد إبعادك عن عملك.

ـ لن تبعديني، لكن عملي، مع الأسف هو الذي سيبعدني عنك. اسمعي، ما من شيء تخافينه.

ـ أنا لست خائفة أبداً. فأنا لا أعتقد أن رئيسك قد وضع في قائمة واجباتك إزعاج السيّاح.

لمعت عيناه بالتسلية: «لكنني لا أعمل طيلة الوقت».

وسكت لحظة ثم استدار واتجه إلى الباب الرئيسي وقال: «اتخذي قرارك، فأنا أنتظر لكي أقفل الباب».

عضت شفته وتبعته إلى الخارج ثم إلى البوابة التي لاحظتها من قبل، ففتحها لها وهو يقول:

ـ أرى أن تعودي من هذا الطريق. أما الطريق الذي تستعمله زوجة

ستافروس فشديد الانحدار.

قالت ببرودة: «شكراً».

فابتسم لها: «بكل سرور».

وعندما هبطت الدرجات شعرت بنظراته تلاحقها. كما شعرت باللحظة التي حوّل فيها عينيه عنها، وكأن سلكاً يصل بينهما انقطع فجأة. وبعد دقائق، سمعت صوت سيارة تتحرك صعوداً، ثم تتوارى.

وأخيراً أصبحت وحدها، وذهلت وهي تكتشف أن ارتياحها امتزج بما يشبه الأسف.

٣ ـ شبح الماضي

حدثت زو نفسها بحزم بأنها تعطي هذا الأمر من الاهتمام أكثر مما يستحق. لقد ذهب وحان الوقت لتمالك نفسها وتنساه.

استمتعت بالسباحة، ثم دهنت جسمها بكريم الحماية من الشمس، وتمدّدت على منشفتها وكتابها بيدها. لكنها لم تستطع التركيز على الكلمات المطبوعة التي راحت تتراقص أمامها لتتركها مركزة اهتمامها، رغماً عنها، على وجه أسمر، وعينين باسمتين تنظران إليها من أسفل السلم الرخامي.

من الطبيعي أن ينطبع في ذهنها بقوة بعد أن أمسك بها وهي تتطفل على أملاك الغير. كان بإمكانه أن يسلمها للشرطة أو حتى أن ينزل بها عقوبة مختلفة. وإنما عليها أن تضع كل هذا وراءها الآن، وتخطط لخطوتها التالية.

حدثت نفسها بأنها هنا لغرض معيّن، فهي ليست مجرد سائحة خالية القلب تتطلّع إلى إجازة عاطفية تمضيها مع نسخة يونانية من كازانوفا.

وجلست تبحث في كيسها عن زجاجة الماء. لم يبقَ فيها سوى القليل فعبست. عليها أن تقتصد في الشرب. بعدئذ، تمددت على بطنها. ستمضي وقتاً قليلاً تحت أشعة الشمس، ثم تعود إلى الفندق حيث تجلس في الظل ترتشف شراباً بارداً.

أسندت رأسها إلى ذراعيها وأغمضت عينيها. بدا وكأن ثرثرة البحر ملأت رأسها فمحت شكوك النهار وإنذاراته. بدا لها وكأنها تقف أمام

صورة أمها جينا، ثم تدخل إليها وبالتالي إلى عالمها.

لم يكن نومها عميقاً، فقد كانت تشعر بالرمال تحت أصابع قدميها، وقماش المنشفة تحت جسمها، وقوة الشمس على ظهرها التي تشبه لمسة يدين دافئتين. حركت كتفيها قليلاً ببطء وسرور، ثم عادت فتركت نفسها تنجرف مع الحلم. فوجدت نفسها مرة أخرى على قمة السلم، وهي تنظر إلى أسفل لتتشابك نظراتها بنظراته. وأخذت تنظر إليه هذه المرة، وهو يصعد السلم...

عادت إلى الواقع بهزة مفاجئة وقلبها يخفق. رفعت نفسها على مرفقها وأخذت تنظر من حولها بتنبّه مفاجيء يتعذر تفسيره. لكن الشاطىء كان خالياً.

عادت تجلس على المنشفة متأوهة بارتياح، ثم توقفت وقطّبت حاجبيها. زجاجة الكريم التي دهنت جسمها بها وأعادتها إلى الكيس، وجدتها أمامها على الرمال، مسندة إلى صندوق تبريد لا تدري من أين جاء.

هذان الغرضان أنبآها بأنّ شخصاً ما كان معها منذ وقت قريب جداً، وحين كانت نائمة، عاجزة.

توتر حلقها وهي تشم رائحة الكريم المميزة وتتذكر المشاعر المنعشة التي أحست بها في جسمها. يدان تدلكان ظهرها بينما هي نصف نائمة، مستسلمة...

آه، يا إلهي... كان هنا... يلمسها، وينظر إليها من دون أن يخفي ذلك أيضاً.

قال إنه راحل، وسمعته يبتعد بالسيارة. لكنه عاد متسللاً. وعاودتها تحذيرات أديل بأوضح شكل.

وضعت أغراضها في الكيس. كان قد ذكر لها طريقاً آخر للخروج نستعمله شيري، وهو حتماً أكثر أمناً من الخروج عن طريق الڤيللا حيث

يمكن أن تصادفه مرة أخرى.

وعندما مدّت يدها إلى ثوبها رأته يهبط الدرجات، حاملاً تحت ذراعه مظلة وفي يده الأخرى زجاجة ماء، كما رأت منشفة متدلية على كتفه.

شتمت نفسها بصوت خافت، فقد فات أوان الهرب. وقفت وأخذت تنظر إليه وهو يقترب، ويداها على وركيها. قالت بجمود: «ظننت أنّ لديك واجبات أخرى في مكان آخر».

ـ لدي أيضاً فرصة للغداء، وظننت أنك قد ترغبين في مشاركتي الطعام.

وأشار إلى صندوق التبريد، غافلاً عن لهجتها العدائية.

ـ أنت مخطىء في ظنك.

وحملقت فيه بعينين كأشعة الليزر. فقال بصوت رصين: «كما تشائين. ولكن اشربي بعض هذا الماء الذي أحضرته لك، على الأقل. فقد تتعرضين للجفاف، كما أن زجاجتك كادت تفرغ».

غرس المظلة التي أحضرها معه في الرمال بعمق، وفتحها فرمت بظلها على منشفة زو.

ـ كيف جرؤت على تفتيش أغراضي...

ـ بحثت عن الكريم لأضعه على ظهرك، فقد كنت معرضة لخطر الحريق. عندئذ، رأيت مدى قلة الماء في زجاجتك.

يا إلهي، بدا وكأن دوافعه هي الأطهر. قالت بجفاء:

ـ أنا واثقة من أن دافعك هو الشهامة...

فقال بابتسامة عريضة: «هل هذا قصدي؟ حسناً، ربما... ولكن قليلاً. أو لعلي فكرت في غضب مخدومي إذا علم أنك في المستشفى مصابة بحروق من الدرجة الأولى أو بضربة شمس، وبالتالي غير قادرة على مناقشة الأعمال».

وناولها زجاجة الماء: «اشربي شيئاً من هذه».

ـ هذا ليس ضرورياً. أنا عائدة إلى الفندق حيث سأتناول شراباً بارداً.

ـ آه... هل زرت اليونان من قبل؟

ـ لا. هذه أول زيارة لي ولكن...

فقاطعها: «من الحكمة أن ترتاحي أثناء ارتفاع حرارة النهار. ولا تخرجي سيراً على الأقدام إذا لم يكن ثمة ضرورة لذلك».

ووضع زجاجة الماء على منشفتها وهو يسألها: «ألا تحبين الشاطىء؟».

ـ إنه رائع.

ـ حتى جئت أنا وأفسدت عليك متعتك. إن لك وجهاً شديد التعبير.

ـ ومع ذلك تبدو مصمماً على البقاء.

ونظرت مشككة إليه وهو يمدّ منشفته على الرمال. فقال: «أنا آتي يومياً إلى هنا في مثل هذا الوقت، بينما جئت أنت تلبية لدعوتي فقط. كما أن البحيرة تكفينا لنسبح فيها معاً فترة قصيرة».

ـ لا أظن أنّ مخدومك سيوافق. هل يعرف أنك تمضي وقتك بهذا الشكل؟

ـ سيعتبر إكرامي ضيفته أحد واجباتي بكل تأكيد.

ـ أنا لست ضيفته رسمياً، كما أن فكرتك عن الضيافة غريبة حقاً.

ـ كيف؟ لقد قدمت لك طعاماً وشراباً وملجأ.

ووقف ويداه على وركيه وأخذ ينظر إليها من فوق إلى تحت ببطء واستحسان واضح، ثم أضاف بنعومة: «إذا كان لديك أي طلب لم أنفذه، فأخبريني عنه».

قالت وهي تصرف بأسنانها: «شكراً، فما فعلته لأجلي أكثر من كافٍ».

ـ هل نعلن الهدنة إذن؟ هذا النهار أجمل من أن نقضيه في الخصام. وإذا لم تشائي أن تأكلي معي، فاشربي بعض الماء على الأقل.

نظرت إليه بتمرد، ثم ركعت على ركبتيها وأفرغت بعض الماء من زجاجته في زجاجتها وقالت بجفاء: «شكراً».

ـ إذا كنت ستمكثين في اليونان وقتاً طويلاً، فعليك أن تتعلمي بعض اليونانية.

ـ لدي قاموس للجمل ولست بحاجة إلى معلم شخصي.

ـ ربما عليك أن تتعلمي شيئاً من الـ «فيلوكسينيا» وهي حرارة ومودة اليونانيين نحو الغرباء.

فقالت وهي ترفع رأسها ببرودة: «ربما هذا ليس موقفاً يُنصح فيه بالحرارة والمودة».

نهض على مرفق واحد ونظر إليها متفحصاً: «ما الذي يجعلك متوترة بهذا الشكل؟ أتراك تظنينني سأنقضّ عليك؟».

وهز رأسه مضيفاً: «لا. أولاً، الجو حار للغاية. ثانياً، الاغتصاب لا يعجبني».

وعاد يستلقي على ظهره، ناظراً إلى السماء الصافية شابكاً يديه خلف رأسه وتابع يقول:

ـ أفضّل غرفة منعشة البرودة، مع سرير مريح ووجبة جيدة، وفتاة ترغب في أن تكون معي بقدر ما أحب أن أكون معها.

والتفت إليها بشبه ابتسامة: «أقل من ذلك لا يفيد. لذا، يمكنك اعتبار نفسك آمنة تماماً».

توهج وجهها وقالت بصوت أجش: «لقد رسمت... صورة حية

للغاية».

ـ وأرجو أن تكون صورة مطمئنة.

حاولت أن تخفي الرجفة الفاضحة في أعماقها، وهي تقول: «نعم، نعم».

ـ هل هذا يكفي لتخبريني باسمك؟

فترددت ثم قالت: «إنه... زو».

ـ إنه اسم يوناني. أنا أندريس. والآن، ما دمنا تعارفنا بشكل صحيح، فهل لك أن تشاركيني غدائي؟

لم تجد سبباً وجيهاً يجعلها ترفض. ولعل التعقل يقضي بأن تكون ليّنة مع شخص يمكنه أن يساعدها، وهكذا ابتسمت له: «حسناً».

كان صندوق التبريد يحتوي على دجاج بارد وسلطة ورقية وزيتون أسود وبندورة وجبن وخبز طازج. كما وضع فيه عنب وخوخ وزجاجة عصير، وكأسان ملفوفتان بفوط سفرة وصحون ورقية وأدوات مائدة.

لم تكن هذه وجبة رجل واحد، وبدا أنه اعتبر موافقتها أمراً مسلماً به. لكنه ربما لم يتعود الرفض.

وبالرغم من تحفظها، استمتعت بالطعام. كان الدجاج طرياً لذيذاً، وللزيتون والبندورة رائحة لذيذة عبقة لا يقارن بها ما تبيعه المتاجر في وطنها.

ـ أتريدين خوخة؟

وأخذ يقشرها لها بينما راحت تتأمل أصابعه الطويلة وأظافره الأنظف من أن تكون لبستاني. ورغم اللكنة الخفيفة في صوته العميق، كانت إنكليزيته صحيحة وجيدة.

أندريس، أخذت تفكر في ذلك متسائلة...

كانت الفاكهة رائعة، ناضجة وحلوة، لكنها ارتبكت وهي ترى

العصير يسيل على ذقنها، وهذا ما لم يغب عن ملاحظته كما لاحظت.

ولكي تحول انتباهه، سألته: «أتحب عمل البستنة؟».

ـ أستمتع برؤية النتيجة. لماذا؟ هل تفكرين في أن تشغّليني عندما تأتين للإقامة في المنزل؟

ـ لم أفكر في ذلك.

ـ فكري فيه الآن، إذن.

ـ هل أنت مطلوب كثيراً للعمل؟

ـ طبعاً، ولكن قد أفسح لك وقتاً في برنامج عملي.

إما أنه أكبر مغرور في العالم وإما أنه متوتر الأعصاب، ورجحت زو الرأي الأخير.

وسكت قليلاً ثم سألها:

ـ أخبريني يا زو. ما هو عملك الذي تعيشين منه؟

ـ أعلّم الإنكليزية.

ـ لا مشكلة إذن. سأهتم بحديقتك، وأنت تعطينني دروساً بالإنكليزية.

ـ أظن أنّ لغتك الانكليزية جيدة جداً.

لمعت عيناه، وقال: «شكراً، أرى إذن أن علينا أن نبحث عن حلّ آخر».

ـ يمكنني بسهولة أن أجد بستانياً آخر، ولكن... قد يرفض رئيسك أن يؤجر لي البيت.

ـ أعتقد أنه لن يتمكّن من أن يقاومك، يا زو. خصوصاً إذا ما دعمتك.

ـ أتظن أن إزالة الحشيش والأعشاب الضارة تمنحك بصيرة تجعلك

تعرف نفسية الناس؟ ما أجمل هذا! وهل سيصغي رئيسك إليك؟

ـ إنه يثق بحكمي عندما أخبره عن النباتات التي ستنمو وتزدهر، وتلك الضعيفة التي لا تستحق التعب من أجلها. أجد أنّ الطبيعة البشرية مشابهة.

وذعرت وهي تجد نفسها تسأله: «وبماذا تحكم علي؟».

بدا شيء من الصلابة في ابتسامته: «عندما أصل إلى قرار، سأخبرك».

وجمع فضلات الطعام ووضعها في الصندوق ثم وقف وخلع سرواله القصير بتمهل كاشفاً عن ثوب سباحة أسود، وسار إلى الشاطىء.

جفّت فمها وهي تنظر إليه. كان جسمه رائعاً كما كان يسير بخطوات واسعة لينة كهرّ ضخم.

وما إن توارى تحت الماء وأخذ يسبح مبتعداً حتى تمالكت نفسها بسرعة وارتدت ثوبها ثم تناولت كيسها وتوجهت نحو الدرجات وهي تتوقع مع كل خطوة تخطوها أن يصبح خلفها أو أن تحس بيده على كتفها يوقفها ويديرها إليه.

وحين وصلت إلى الدرجة العليا، غامرت زو بالنظر إلى الخلف. كان رأسه الأسود ظاهراً وجسده المرن يشق الماء من دون جهد. رجل في قمة شبابه يستمتع بهذا التمرين الخشن غافلاً عن رحيلها والحمد لله.

وصلت إلى الطريق، فوقفت لاهثة. وحدثت نفسها بأن هذا ما يسمونه بالهرب المحظوظ.

* * *

عندما وصلت إلى الفندق، كان العرق وحرارة الجوّ قد أرهقاها. تناولت مفتاحها من مكتب الاستقبال وصعدت إلى غرفتها شاعرة بالذنب ومسرورة لعدم وجود شيري لتسألها كيف أمضت نهارها.

عندما تنزل لتناول العشاء، ستكون قد تمالكت نفسها فتدلي بتعليق

ساخر عن سحر الجزيرة.

هذه الجزيرة صغيرة للغاية. ورغم أنها تريد أن تتجنب فيللا دانا حتى يعود صاحبها من أثينا، إلا أنها ستصادف أندريس في وقت ما، ولهذا، عليها أن تضع خطة مناسبة للوضع.

تنهدت بفروغ صبر، محدثة نفسها بأنه لن يضيع مزيداً من وقته عليها، فهي ليست السائحة الوحيدة في الجزيرة. وهو يريد امرأة دافئة العواطف تريده هي أيضاً.

في الحمام، وقفت تحت الماء البارد وتركته يسيل على شعرها وجسمها الساخن.

أزعجها أن ترى مدى تأثير أندريس فيها. حدثت نفسها بأنها لم تصادق رجلاً منذ فترة طويلة ما جعلها لا تعلم كيف تتعامل مع شخص مثله.

خرجت من الحمام، ثم أخرجت من الثلاجة الصغيرة زجاجة عصير الليمون وحملتها إلى الشرفة مع الأوراق المتعلقة بفيللا دانا.

ما هي بحاجة إليه الآن هو ترجمة واضحة للمستندات التي تمنح الفيللا لأمها. ظنت أن بإمكانها أن تسأل ستافروس، لكنه لا يجب أن يجرح أياً من ذوي النفوذ في الجزيرة. كما عليها أن تعرف هوية مخدوم أندريس في أثينا. كان عليها أن تسأل من قبل، ولكن الإمساك بها في الفيللا، تركها في حالة ضياع.

وعضت شفتها بعنف. لقد أثّر أندريس فيها بطريقة غريبة ولا فائدة من إنكار ذلك.

ما زالت تشعر بانسياب أصابعه على ظهرها. وحدثت نفسها بأنه ما كان لها أن تتذكر لمسات أندريس بهذا الشكل، فقد كانت نائمة.

لكن لو لم تكن نائمة، فماذا كانت لتفعل؟ هل تبقى جامدة متظاهرة

بالنوم؟

تسارعت أنفاسها وشعرت بحلقها يتوتر. إن ما فعلته غير حسن وما كان لها أن تذهب إلى هناك.

وفكرت بكآبة، بأنها لم تكن تعرف أنها سريعة التأثر إلى هذا الحد.

كانت العبّارة تغادر شاطىء الجزيرة فتمنت للحظة لو كانت على متنها. وفكرت عابسة بأنه ما كان لها أن تأتي إلى هنا من دون أن تعرف هدفها مسبقاً. ما كان لها أيضاً أن تكشف عن اهتمامها بالمنزل بهذه السرعة. ولكن ما هو الخيار الحقيقي الذي كان لديها؟

وعادت تتنهد بأسى. من الآن فصاعداً، ستهدىء الأمور. شيري ستعلم طبعاً عندما يعود مستخدم أندريس من أثينا. وستحرص على أن تكون أسئلتها عنه عفوية ومتحفظة. وإذا حدث وقابلت أندريس في نفس الوقت، ستجعله يعتقد أنها كانت تعبث معه. وبهذا تخرج من هذا المأزق ببعض الكذبات البيضاء.

* * *

سألتها شيري ذلك المساء وهي تضع على مائدتها طبق السلطة: «هل أعجبك الشاطىء؟».

ـ نعم.. لكنني لم أكن وحدي كما قلت لي.

فغضّنت شيري أنفها: «آه، هل عاد ستيف دراغوس؟ لم أكن أعرف. ظننته لا يزال في أثينا بعد نوبته القلبية».

ـ لا أظن أن الرجل الذي قابلته معرّض لمشكلة قلبية. يبدو وكأنه بستاني، أو حارس.

بدت الدهشة على شيري: «أحقاً؟ لم أكن أظن أن هناك بستانياً. ربما هو قريب هارا التي تعتني بالمنزل. ما اسمه؟».

قالت كاذبة وهي تملأ كأسها بالماء: «لا أتذكر. ومن هو ستيف

دراغوس هذا؟».

- إنه الملياردير الذي يملك ناقلات نفط وسفن شحن حول العالم، والذي وجد وقتاً يبني فيه فيللا دانا.

- يا للسماء... ومع ذلك هو لا يعيش فيها.

- لا، إن له قصراً على الساحل.

ونظرت شيري إليها بقلق وسألتها: «أرجو ألاّ تكوني قد وقعت في مشكلة لوجودك هناك».

- لا. لكنهم يعلمون أنك تستعملين شاطئهم أحياناً.

تكلمت بصوت منخفض فقالت شيري واجمة: «يا لجهنم! لا بد أن ستيف دراغوس لديه كاميرا خفية هناك. أشكر الله على أنني لست هزيلة للغاية».

كان لدى زو الكثير لتفكر فيه وهي تأكل السمك المشوي. هل الرجل الموجود في الصورة هو ستيف دراغوس...؟ وهل هو الذي وهب الفيللا لأمها؟ وإذا ما فعل... فلماذا؟

كيف اختلطت أمها بذلك المجتمع الثري للغاية؟ لم تفهم. كانت حياتها العائلية مريحة لكن المال المدخر كان قليلاً.

تملكها شعور غير مريح بأنها تغرق في مياه عميقة، لكنها لا تستطيع التراجع الآن. كانت متلهفة إلى معرفة كل شيء.

تزايد إحساسها بالقلق إذ توقّعت رؤية أندريس يسير في الفناء في أي لحظة، فهو يعرف أين تقيم، وهي مقتنعة بأنه سيأتي للبحث عنها. ومن ناحية أخرى، لعله قرر ألاّ يبالي بها ما دامت هي التي تركته. لكن، أليس هذا ما تريده؟

أخذ قلبها يخفق كلما دخل شخص إلى الفندق، ولكنها لم تَرَ بينهم ذلك الرجل الطويل المتغطرس يقف ليتفحص الموائد بعينين سوداوين

ضيقتين.

يبدو أن رحيلها كان له التأثير المطلوب وعليها أن تكون شاكرة لذلك.

كل نظرة وكل ابتسامة تظهر أنه زير نساء خبير، وهذا يدل على أن علاقاته بالنساء أشبه بتلك الفراشات الملوّنة التي رأتها في حديقة تلك الفيللا وهذا آخر ما تريده.

أكلت الحلوى المصنوعة من المشمش وأخذت ترشف القهوة. وعندما جاءت شيري لترفع الأطباق، تنهدت زو: «كان هذا رائعاً. تحياتي إلى الطاهية».

- إنها حماتي وهي راقصة بارعة أيضاً. وسترينها ترقص ليلة غد.

خرج معظم الزبائن، بعضهم ليتمشى على رصيف الميناء. وفكرت زو في أن تفعل مثلهم. لكنها وبدلاً من ذلك، وجدت نفسها تتوجه إلى غرفتها وهي تفكر في أنه كان يوماً حافلاً والنوم باكراً لن يضرها على الإطلاق.

شعرت بالوحدة وهي ترى نفسها وحدها في بلد أجنبي.

هل كانت أمها وحيدة أيضاً، ما أغراها بالابتعاد عن نمط حياتها المعتاد؟ هل هذا ما حصل؟... إجازة وعلاقة عابرة مع رجل تبين في ما بعد أنه غني إلى درجة جعلته يقدم لها هدية الوداع بيتاً، بدلاً من قطعة المجوهرات التقليدية؟

لم يكن هذا منطقياً كما أخذت تفكر وهي تفتح بابها، لكنه مقبول.

عندما دخلت لمحت نفسها في المرآة. فتاة شقراء الشعر، بعينين واسعتين مترقبتين، وثوب أسود واسع، ثوب يرضي الرجل.، كما فكرت بسخرية.

ربما ابتدأ الأمر على هذا النحو مع أمها، أيضاً. ربما وقفت جينا

قبلها أمام مرآة في غرفة كهذه فثارت حواسها ومشاعرها.

أتراها مكثت هنا، محتفظة باحترامها لنفسها، أم تنقلت كشبح رشيق، إلى حيث كان ينتظرها في ظلال السرو؟

لكن أندريس لم يكن ينتظرها هي في أي مكان فقد انتهى عمله لهذا النهار ولعله الآن في بيته مع زوجته وأولاده.

وصدر من حلقها صوت متألم.

حدثت نفسها بأنها تركته وابتعدت، وهذا تصرف حسن. لقد فعلت الشيء الصواب، الشيء الوحيد الذي ينبغي لها أن تفعله.

فلماذا تشعر بمثل هذا الضياع؟

٤ ـ دعوة وصداقة

أمضت زو ليلة سيئة، واستيقظت في الوقت المناسب لترى الشمس في سماء صافية، مبشرة بيوم حار آخر.

كان لديها الوقت أثناء الليل لتضع خطتها. فاغتسلت ولبست تنورة سوداء وبلوزة مناسبة فوق ثوب السباحة، وعقدت شعرها على قمة رأسها بمشبك فضي.

سألتها شيري وهي تسكب لها القهوة: «هل أنت عائدة اليوم إلى الخليج الصغير؟».

فقالت زو بمزيج من الصدق والأسف: «رأيت أن أذهب للتفرج على معالم الجزيرة قبل أن تشتد حرارة الجو، فأكتشف ما لدى مدينة ليڤامي لتقدمه للسائح».

وربما تجتمع بالعم ستافروس، كما فكرت صامتة...

ـ ليڤامي جميلة جداً والكنيسة رائعة، لكن إذا أردت الدخول فعليك أن تغطي كتفيك.

ـ لدي قميص سألبسه.

وأخرجت من حقيبتها قميصاً طويل الكمين وفضفاضاً بحيث يمكن لبسه على الشاطىء فوق ثوب السباحة. قالت شيري وهي تبتعد: «تجنبي المرور أمام الأيقونة التي تساعد النساء على الحمل، إذا أردت عدم حدوث ذلك لك...».

ـ نعم... فأنا عزباء.

كانت التلة المؤدية إلى الساحة الرئيسية من الانحدار والضيق بحيث اضطرت لأن تقفز للاحتماء بعتبات البيوت كلما مرت بها السيارات والدراجات النارية مسرعة. وعندما وصلت إلى القمة مرهقة لاهثة وجدت أن رؤية الساحة، بطرازها القينيسي وكنيستها البيزنطية تستحق كل جهد.

التقطت بعض الصور ثم أخرجت قميصها الفضفاض فلبسته ودخلت إلى الكنيسة حيث الجو البارد المنعش العابق بالبخور. ألقى عليها كاهن ملتحٍ نظرة ثم انحنى قليلاً من دون ابتسام.

رأت أيقونات في كوى في الجدران وكلها موقرة جليلة بحيث لم تعرف أيها تتجنب كيلا تحمل. وأخيراً لوت شفتيها. إن ما عليها أن تتجنبه هو رجل حقيقي وليس أيقونة.

وعندما خرجت من الكنيسة لفحتها حرارة الشمس، فطلبت عصير ليمون بارد وجلست إلى طاولة تحت مظلة ثم أخذت تنظر من حولها.

شغلت مجموعة من الرجال المسنين يلعبون النرد إحدى الموائد. وكانت حركات أيديهم سريعة بشكل لا يصدق. ولكن أيهم هو العم ستافروس، هذا إذا كان بينهم؟ ورأت أن ليس بإمكانها أن تحوّل اهتمامهم إليها في ما لو سألتهم.

أخرجت من حقيبتها كتيّب السياحة الصغير الذي اشترته قبل صعودها التلة، وأخذت تتصفحه. ولكن، عدا عن الشعور الرائع بالهدوء والسكينة، لم يكن في الجزيرة ما يستحق الذكر.

ثمة دير مهدّم وقريتان صغيرتان لصيد السمك ومنظر رائع لبحر «يونان». ودروب للمشاة يتطلب قطع الواحد منها أكثر من ساعات، بما في ذلك الطريق المؤدي إلى قمة جبل «أديرا» ذي المناظر الرائعة.

أما «الكهوف الفضية» الموجودة في الناحية الأخرى من الجزيرة،

فتؤدي إلى بحيرة صغيرة تحت الأرض. وقد أضفت عليها بعض الأملاح على الصخور لمعاناً معدنياً ما يجعل لون المياه فضياً. وفي الليالي المقمرة، يتسرب ضوء القمر من سقوف الكهوف فيشعر الزائر بأنه في ضمن صندوق فضي ثمين.

وكان في هذا ما استهوى زو وفتنها.

وعندما أغلقت الكتيّب، شعرت فجأة بأنها مراقبة. نظرت إلى أعلى فرأت نظرات مقطبة لقادم جديد، قوي البنية ذي شعر فضي كثيف، ووجه تملأه الغضون.

ورغم أن نظراتها اشتبكت بنظراته، إلا أنه لم يحوّل عينيه عنها بل بقي ينظر إليها بفضول وعنف وكأنه يعرفها لكنه لا يستطيع أن يتذكر من تكون.

لكنها تراهن على أنها تعرفه، كما حدثت نفسها بصمت. إنه العم ستافروس.

حاولت أن تنهض لتتقدم منه وتحادثه، لكنه نهض وابتعد بسرعة أكبر من أن تتناسب مع رجل يسير على عصا، فعادت تجلس على كرسيها شاعرة بالإحباط.

كانت تعلم من الصور مقدار شبهها بأمها في العمر نفسه.

بدا واضحاً أنه لاحظ الشبه العائلي، لكنه لا يريد أن يجدد المعرفة كما أخذت تفكر بكآبة. وخطر لها أنّ ثلاثة أيام فقط مضت على وصولها، وما زال أمامها وقت يكفي لكي يتغلب عليه الفضول، وهي واثقة من ذلك.

وإلاّ، فستتقدم هي منه.

حسناً، انتهى التفتيش لهذا اليوم. أخذت تفكر في ذلك وهي تترك نقوداً على الطاولة للنادل، لتعود سائحة مرة أخرى.

وفيما كانت تنزل التلة، تذكرّت ذلك التحديق المركّز والقلق إليها.

* * *

لم تكن شيري تمزح عندما حدثتها عن مدى ازدحام شاطىء المدينة.

يبدو أن سكان ليڤاسي كلهم جاؤوا ليتمشوا ويغتسلوا في المياه الضحلة، ويلعبوا كما خطر لها عندما سقطت بجانبها كرة شاطىء كبيرة جعلت الرمال تتطاير عليها.

ركض إليها صاحب الكرة ليستعيدها، وهو يمنحها ابتسامة مشرقة ما لبثت أن استحالت إلى نظرة ماكرة، فيما راح رفاقه يصيحون به بما بدا وكأنه تشجيع. سألها: «هيا يا جميلة. هل تحبين أن تلعبي معنا؟».

ـ لا... شكراً.

كان جوابها صارماً وهي تحملق فيه بصمت، ثم تعود باهتمامها إلى كتابها.

كانوا أربعة فتية مزعجين منذ وصولهم. فقد أخذوا يلقون الكرة باتجاهها بشكل متعمد، لتصبح حجة للتعارف ثم يركضون إليها ويلقون ملاحظات ضاحكة وهم ينحنون بقربها.

ولأول مرة، ندمت لأنها وحدها فقد أدركت أن هذا جعلها هدفاً للباحثين عن الحب من فتيان الجزيرة.

على أيّ حال، يبدو أنها انزعجت أكثر مما يجب من بعض المزاج البريء! كما أخذت تواسي نفسها. فإن لم تهتم بهم، سيملون ويبتعدون عنها.

لكن بعد عشر دقائق، وهي ترى الرمال لا تزال تتطاير من حولها، قررت الذهاب.

على أيّ حال، لقد حان وقت الغداء ويمكنها أن تتذوق السمك في مطعم السمك الذي مرّت به ناحية الميناء. وعندما تعود قد تجد أن الفتيان

انتقلوا إلى مكان آخر أو وجدوا فتاة أخرى يضايقونها.

لبست قميصها الفضفاض فوق ثوب السباحة ثم جمعت أغراضها ووقفت. رجت أن يكونوا من الاستغراق في اللعب بحيث لا يلاحظون ذهابها، لكن ما إن وصلت إلى الطريق حتى وجدت أن اثنين منهم يلاحقانها. أسرعت الخطى فتعثرت ببعض الحصى وإذا بأحد الغلامين يصل إليها ويضع يده على ذراعها. ثم قال وهو يتأملها بنظرات وقحة: «تعالي معي إلى مقهى أخي».

فقالت ببرودة من دون أن تبتسم: «لا، شكراً».

حاولت أن تسحب ذراعها من يده ولكن عبثاً، فقد اشتدت يده عليها. وكان رفيقه قد وصل ووقف إلى جانبها، وهو يقول: «نريدك أن تكوني ودوداً. عملت السنة الماضية في مؤسسة «حيث». كل الفتيات الإنكليزيات ودودات».

ودفع كم قميصها إلى أعلى وأخذ يمر بأصابعه الحارة الرطبة على ذراعها العارية.

أخذ غضب زو يتحوّل إلى ما يشبه الخوف، لكنها لم تجرؤ على إظهار ذلك، بل قالت ثائرة:

ـ دعني أذهب، دعني.

وضحك الفتى الثاني مبرزاً سناً مكسورة: «كوني لطيفة يا فتاتي الحلوة، وستمضين وقتاً ممتعاً».

فقالت: «وأنا سأجعلك تمضي وقتاً في السجن».

وبقوة لم تكن تدري أنها تملكها، انتزعت ذراعها من يده وانطلقت تركض. لكن قبل أن تبتعد أمتاراً، اصطدمت بشخص سدّ طريقها، فتراجعت وهي تصرخ.

وصل إليها صوت أندريس الذي أمسكها من كتفيها: «لا بأس. أنت

آمنة».

ونظر إلى مهاجميها وتحدث إليهما بلغته بلطف.

نظرت زو غير مصدقة وهي ترى تبجحهما ومباهاتهما بقوتهما يتلاشيان وراحا يحدّقان إلى الأرض بخجل وشعور بالذنب وهما يتمتمان ويهزان أكتافهما. وعندما تحدث أندريس بمزيد من الحدة، استدارا وعادا إلى الشاطىء ببطء.

قالت بصوت مرتجف: «يا إلهي، لم يبديا أي مقاومة».

ـ ربما تريدينني أن أدعوهما ليعودا؟

ـ لا، لا... ولكن ماذا قلت لهما فجعلتهما... يذهبان بهذا الشكل؟ هل يعرفانك؟

ـ طبعاً، تانيا جزيرة صغيرة جداً. ذكّرتهم بأننا نعمل لحساب الرجل نفسه الذي لن يسره أن يتحرشا بسائحة. ولكن أريد أن أخبرك أنهما غبيان أكثر منهما خطران.

ـ ليس من وجهة نظري.

وابتعدت عنه خطوات عدة وهي تنظر إليه مقطبة.. كان يرتدي بنطلوناً أسود، وقميصاً أبيض رقيقاً يكشف عن مقدار من بشرته السمراء لا تتمنى رؤيته. سألت بسرعة: «هل هذا كل ما قلته لهما؟».

ـ مع بعض الإضافات لكنني لن أزعجك بذكرها.

استوعبت ما قاله، ثم نظرت إليه بتشكك: «وما الذي تفعله أنت هنا على أيّ حال؟».

ـ فكرت في... إنقاذك من الإزعاج.

تغاضت عن قوله هذا وعادت تسأله:

ـ أعني كيف حدث أن تكون هنا في اللحظة المناسبة. أليس هذا غريباً؟

فقال بلطف: «إنها نظرية المؤامرة. ولكن لا ضرورة لعقدة الاضطهاد يا عزيزتي، ولا تتصوّري أنني استأجرت ذينك المعتوهين ليزعجاك فأتدخل ممثلاً دور الفارس المنقذ الشهم. لقد كنت بحاجة إلى مساعدة، وحدث أن كنت ماراً، وهذا كل ما في الأمر».

ـ حدث أن كنت أنت ماراً فقط.

فهز كتفيه: «هذا طريق عام يؤدي إلى مسبح عام. لكني أعترف بأنني كنت قادماً من أجلك».

ابتدأ قلبها يخفق بشكل مختلف: «ولماذا أتيت من أجلي؟».

وتساءلت بيأس عما جعلها تطرح هذا السؤال بينما هي لا تريد أن تسمع الجواب. وأجاب باسماً:

ـ لأن شاطىء المنزل يبدو هادئاً من دونك وقد غادرت من دون وداع.

ـ شعرت بالارتباك. شعرت بأنني متطفلة لا يحق لي أن أكون هناك. وكنت أعلم ذلك.

ـ رغم أنني أوضحت لك بأنك ضيفة على الرحب والسعة؟

ـ حسناً، لم يكن ذلك بيتك لكي ترحب بي فيه. ومهما كان مخدومك حريصاً على عدم إزعاج السائحات، إلا أنه قد لا يرضى عن استضافتك الزائرين في غيابه.

ـ أتعهد لك بأنه سيشعر بأنك شرّفته.

ـ ومع ذلك، أظن أنّ من الأفضل أن أبتعد من الآن فصاعداً.

فقطب: «هل تعنين أن المنزل لم يعد يهمك؟ هل غيرت رأيك ولم تعودي تتمنين العيش فيه؟».

ـ أنا لم أقل هذا.

ـ هذا حسن. لأنني أخبرت مخدومي عن اهتمامك بالمنزل، وهو

متشوق لمقابلتك.

نظرت إليه بذهول فهي لم تتوقع ذلك. كانت تنوي أن تقوم بتحرياتها بنفسها... أن تبقى مسيطرة على الوضع. أما الآن، فيبدو أن الوضع خرج من يدها.

ـ أليس هذا سابقاً لأوانه؟ كنت أظنه مريضاً جداً.

ـ إنه يتحسن، وقد تملكه السأم. إنه بحاجة إلى اللهو، إلى اهتمامات جديدة، وهذا ما يمكنك أن توفريه.

ـ لست فتاة ملهى. ثمة عمل أريد أن أناقشه معه.

ـ طبعاً لست منهن، فهن يبتسمن أكثر منك.

فعضت شفتها: «آسفة. أظنني ما زلت مرهقة الأعصاب».

ـ أنت بحاجة إلى طعام. تناولي الغداء معي. وأثناءه يمكنك أن تعبري عن شكرك لي لأني قدّمت لك العون، فأنا واثق من رغبتك بالقيام بذلك.

شعرت زو بفمها يسترخي فغالبت ذلك بسرعة. لقد أذلّها مرة أخرى. كيف أمكنه ذلك؟

إنها ليست مستعدة للمغامرة مرة أخرى بتناول الطعام معه، حتى ولو كانت تفصلهما مائدة ويحيط بهما أناس كثيرون. إن ذلك خطر بالغ، ورد فعلها عليه متطرف تماماً. قالت بابتسامة صغيرة هادئة: «لدي خطة مسبقة للغداء. لذا أفضل أن أشكرك هنا والآن. لقد أنقذتني من... موقف سيء وأنا شاكرة لك».

وفكرت في أن تصافحه، لكنها غيرت رأيها: «شكراً مرة أخرى، وإلى اللقاء».

وسارت مبتعدة، محاولة ألاّ تسرع. لم تغامر بإلقاء نظرة إلى الخلف لترى ردّ فعله على رفضها له. من المؤكد أنه فهم. ووجدت وهي تتذكر

الأسعار التي قرأتها على قائمة الطعام المعروضة على واجهة خارج مطعم السمك، أنها تسدي له خدمة لأنه لا يستطيع تحمّل كلفة كهذه براتبه كبستاني.

كان مطعم السمك مزدحماً، وموائده كلها مشغولة تقريباً. وعندما ترددت زو في الدخول، برز نادل بجانبها باسماً: «إذا شئت سمكاً طيباً، فتعالي معي. لديّ مائدة لك».

ودفعها بلطف وخفة إلى مائدة منعزلة في زاوية مظللة بعريشة.

جلست زو وهي تتنهد راضية، ومدّت يدها تلامس أوراق الورد الموضوع في الزهرية في منتصف المائدة على غطاء ناصع البياض. وبعد نظرة حولها رأت أن مائدتها هي الوحيدة المميزة بهذه الزينة.

جاء النادل يحمل ماءً بارداً وسلة تحوي خبزاً طازجاً كما لاحظت بضيق أدوات مائدة لشخصين. بدأت تقول: «عفواً...».

لكنه كان قد ذهب ليعود بعد فترة بزجاجة عصير. وهذه المرة وقفت بحزم: «آسفة، لا بد أن هناك خطأ ما».

فأجابها أندريس وهو يجلس على كرسي قبالتها ويبتسم لها:

ـ لا. ما من خطأ. أرجو أن تكوني جائعة فكوستاس حضّر لنا سرطاناً.

جلست متجمدة من الغضب، وأخذت تنظر إليه فيما النادل يملأ كأسيهما. وحالما ذهب مالت نحو أندريس: «دعنا نتفاهم على أمر واحد، وهو أن ما من كلمة (لنا)».

فرفع حاجبيه ساخراً: «لا؟ لكن هذا ينطبق على كل اثنين يكونان معاً، ونحن معاً بكل تأكيد».

ـ وكيف صدف اجتماعنا هذا؟ كيف علمت أين أردّت أن أتناول الطعام؟ أم أنك تحجز مائدة في كل مطعم سمك في المدينة؟

هز كتفيه: «عاجلاً أم آجلاً، كل شخص يأتي ليأكل في مطعم كوستاس. ورأيت أن الأكل سيعجبك هنا، فجربت حظي».

ـ حسناً، حظك لم ينجح. أنا خارجة.

ـ ألا تحبين السرطان؟

فقالت وهي تنهض: «لا علاقة لهذا بالطعام، أنا لا أحب أن أخدع، خاصة بعد أن أوضحت أنني أريد أن آكل وحدي».

ـ كلمة (وحدي) مرة أخرى. أخبريني يا عزيزتي، هل تعلمين ما تعنيه كلمة «زو» باليونانية؟

ـ لا.

اشتبكت عيناه بعينيها: «إنها تعني الحياة. فَلِم تخشين أن تعيشي؟».

فاحمر وجهها: «قولك هذا مخجل وغير صحيح».

نظر إليها بخشونة: «لماذا إذن ترفضين الصداقة عندما تقدم إليك؟».

فسألته بمرارة: «الصداقة؟ هل هذا ما كان في ذهن صديقيك منذ دقائق؟».

قال غير مصدق: «وهل تعتقدين أنني مثلهما؟».

نظرت إلى المائدة: «وما أدراني؟ وكيف أستطيع أن أتأكد؟ نحن لم نتعارف إلا في الأمس، حتى أننا لسنا على معرفة سطحية».

ـ هذا ما أحاول أن أغيّره، لكني لم أنجح حتى الساعة. اجلسي يا عزيزتي وسأخبرك بكل ما تريدينه.

وعندما ترددت أضاف برقة: «كما أن كوستاس سيحزن إذا ضيّعنا طعامه سدى».

عادت إلى كرسيها بشكل متمرد: «لا أدري لماذا أفعل هذا!».

ـ لأنك جائعة وعطشى أيضاً.

جاء النادل بأطباق السلطة، وسلطة الخيار والثوم والزيتون الأسود.

ـ أتحبين الطعام اليوناني؟

ـ كل ما تناولته حتى الآن كان رائعاً.

فقال عابساً: «هذا حسن ففي جزيرة تانيا لا تجدين غير هذا تقريباً. ما من أطعمة خفيفة سريعة أو مقاهي لذلك».

ـ أليست هذه هي مصادر الدخل في المتجعات؟

ـ ربما في الجزر الأخرى ولكن ليس هنا. نحن لا نريد أن نسلك ذلك السبيل. تانيا تعود لأصحابها، فهم يصطادون السمك ويغرسون زيتونهم، وهم قانعون بذلك.

فقالت وهي تقطع الخبز وتغمسه في اللبن بالخيار: «وأحياناً يقومون بأعمال البستنة للأغنياء. هل يكفيك هذا بقية حياتك؟».

ـ ربما لا. ولكن البستنة جزء من واجباتي العملية كما سبق وأخبرتك. وأنا أستمتع بالتغيير.

وابتسم لها فقالت بصوت منخفض: «هذا ما أراه».

واتسعت ابتسامته فشعرت بأنه يعلم تماماً في ما تفكر وتابع:

ـ وماذا عنك يا عزيزتي؟ هل تخططين لتعليم الإنكليزية إلى الأبد؟

ـ ربما.

فقال برفق: «يا لها من خسارة. ألا تحبين أن تتزوجي وترزقي بأولاد؟».

عاودتها ذكرى جورج وهو يطلبها للزواج بعناد في المقهى. وكبحت ضحكة، وبادلته النظرات: «أبداً، إن مهنتي تملأ حياتي».

فرفع حاجبيه: «وهل تدفئك مهنتك في السرير؟».

عاد وجهها يحمرّ: «لا أظن أنّ هذا من شؤونك اللعينة. ظننت أن

الغرض من هذا الغداء، هو أن أعرفك كما يجب».

ـ اسألي ما تريدين وأنا أجيبك.

ـ حسناً، قد نبدأ بشهرتك.

حاولت أن تبدو عفوية لكن التوتر كان يتملكها، وتساءلت بعنف عمّا حدث لها. أي فتاة أخرى عزباء كان ليسرها أن تجد رجلاً بنصف جاذبيته يتحدث إليها.

وأيّ من تلميذاتي ستتجاوب مع أمثاله أكثر مني... فلماذا لا أستطيع... أن أكون كالأخريات؟

ـ شهرتي هي ستيفانوس. أندريس ستيفانوس. ماذا بعد؟ عمري؟ وزني؟ طولي؟

ـ لا أظن ذلك ضرورياً.

لا بد أنه في أوائل الثلاثينات من عمره، وطوله ستة أقدام على الأقل، كما أنها تراهن على أن وزنه لا يزيد عن الوزن المثالي بنصف كيلوغرام.

ـ ماذا بعد؟ برجي؟ دخلي؟

ـ أظن أنّ برجك هو العقرب. أما دخلك فلا شأن لي به.

فنظر إليها ساخراً: «لا بد أنك امرأة غير عادية على الإطلاق».

ـ أظن ذلك، هل تخميني لبرجك صحيح؟

فلوى شفتيه بجفاء: «في الحقيقة... نعم. لماذا لا توجهين إليّ سؤالاً آخر؟».

ـ لم يخطر في بالي سؤال آخر.

ـ لا؟ ألا تريدين أن تعلمي ما إذا كنت متزوجاً؟

أخذت تفكر بجواب: «لست واثقة من أنني سأحظى بالجواب

الصحيح».

فسألها بفتور: «ولماذا أكذب عليك؟ في جزيرة بهذا الحجم ما أسرع ما تعلمين ما إذا كنت متزوجاً. وربما تخبرك الزوجة بنفسها وهي تخمشك بأظافرها».

قال هذا عابساً ثم عاد فسألها: «وماذا عنك؟ أنت لا تضعين خاتماً، لكن هذا لا يعني الكثير في هذا العالم. هل من رجل ينتظرك؟ لا يستطيع النوم لأنك لست بين ذراعيه؟».

فقالت بسخرية: «ثمة مجموعة كاملة منهم. أنا فتاة المسرات والحفلات، ما من هدوء أو سأم وأنا موجودة».

فقال بجفاء: «هذا فقط أصدقه وليس البقية».

ـ لم يكن لديّ مؤخراً وقت للعلاقات، فقد كانت أمي مريضة جداً فاقمت معها لأرعاها.

ـ أنا آسف، أظنها تحسنت الآن؟

فهزت زو رأسها نفياً.

ـ آه يا زو... هذا حزن خبرناه معاً: فقدان الأم.

نظرت إليه بسرعة فاشتبكت نظراتهما: «أنا... أنا آسفة. هل حصل ذلك حديثاً؟».

ـ منذ عشر سنوات. وقبل ذلك بقيت مدة طويلة عليلة، لكن موتها كان وما زال ليس سهلاً، أليس كذلك؟

فتنهدت: «موت الأم ليس سهلاً على الإطلاق. أما زال أبوك حياً؟».

ـ نعم. وهذا ليس حالك كما أظن، أليس كذلك؟

ونظر إليها متفحصاً، فقالت بصوت مختنق: «لا، وهكذا عليّ أن أبدأ حياة جديدة، وهذه الإجازة ما هي إلا البداية».

وضع يده فوق يدها مهدّئاً حركتها العصبية: «هل هذا هو سبب رغبتك في أن تكوني وحدك؟ لأنك تظنين أنك إذا أبعدت الناس عن حياتك الجديدة هذه، فلن تعاني مزيداً من الألم؟ لكن هذا الأمر لن يفيدك. صدقيني... عاجلاً أم آجلاً سيدخل رجل إلى عالمك، وسواء أجلب لك الجنة أم الجحيم فلن تستطيعي التهرّب من ذاتك».

نظرت إلى الأصابع الطويلة السمراء التي تغطي يدها، وشعرت بحنين مفاجىء يتملكها. وبسرعة سحبت يدها وشغلت نفسها بأخذ قطعة خبز وملء صحنها بالسلطة والزيتون، ثم قالت بمرح:

ـ أنت تجعل الأمر يبدو مخيفاً، ويكفي الخوف الذي عانيته اليوم.

ـ لقد انتهى ذلك، ولن يخيفك أحد بعد الآن. وأنا الضامن.

نظرت إليه مشككة: «هل لديك مثل هذا النفوذ حقاً؟».

قالت هذا بمرح فقال باللهجة نفسها: «أنا معروف بأنني أفي بوعدي».

فقالت وقد صدقته: «أنا محظوظة إذن لأنني صادفتك».

ـ ذلك ليس حظاً، بل القدر. ها قد جاء غداؤنا.

حدقت زو إليه وقد انقطعت أنفاسها فجأة.

كان سرطان البحر رائعاً وقد قُدّم لهما مشوياً مع طبق من الزبدة المذوّبة، وآخر يحتوي على صلصة لذيذة.

واستحال على زو أن تعامله بنفور كما كانت نيتها، أثناء هذه الوجبة الفوضوية غير العادية حيث علّمها أندريس ضاحكاً، كيف تأكل حتى آخر قطعة. بعدئذ، قدّمت لهما الفاكهة والقهوة اليونانية الثقيلة.

ـ لا أظن أنّ بإمكاني أن أتحرك.

فابتسم لها بكسل: «لا تتحركي إذن. لا داعي للعجلة».

النظرة التي ألقتها من حولها أنبأتها بأنه على صواب، فقد ساد الهدوء

في المطعم حيث يبدو أن معظم الزبائن فضلوا البقاء في الظل بهدوء حتى حلول بعد الظهر.

ووجدت نفسها تتذكر ما أخبرها به أندريس عن الغرف الباردة المغلقة النوافذ في حرارة بعد الظهر. وتساءلت إن كان هو أيضاً يتذكر.

ـ أنا واثقة من أن لديك أماكن تقصدها، وأعمالاً تنجزها، وأناساً تراهم...

كان قد قال إنه غير متزوج، ولكن لا بد أن ثمة امرأة أو نساء في حياته.

هز كتفيه وقال بشبه ابتسامة: «يمكنهم أن ينتظروا، إلا إذا أردت التخلص مني».

فقالت: «هذا غير صحيح طبعاً».

لكنه كان صحيحاً جزئياً. وأضافت بسرعة: «كنت بالغ اللطف لكنني أشعر فقط بأنني أخذت من وقتك ما يكفي».

نظر إليها طويلاً: «تظنين أنّ تصرفاتي نحوك مجرد لطف؟ هل أنت بهذه السذاجة؟».

ـ أنا لست ساذجة، كنت فقط أبرئك لعدم كفاية الأدلة. لكنني أرى أنني مخطئة. وأريد أن أدفع ثمن غدائي.

وتناولت حقيبة يدها، فقال لها من دون انزعاج: «أنت تضيعين وقتك، لأن كوستاس لن يأخذ نقودك».

ـ ولِمَ لا؟

مال إلى الأمام ينظر في عينيها، كانت أهدابه كثيفة وطويلة، وهذا أمر مذهل بالنسبة إلى رجل فياض الرجولة وأجاب: «للسبب نفسه الذي يمكّنك من أن تتمتعي بالعزلة على شاطىء المدينة عصر هذا اليوم فلا يزعجك أحد، لأنك كنت معي. وقد عرف الناس هذا الآن، ما يجعلك

www.romancia.com

آمنة من أي وقاحة».

وقفت زو وقد عادت ترتجف، لكن غضباً من جرأته البالغة هذه المرة، وقالت: «ما عدا وقاحتك، وهذا غير مطمئن. لكنني لا أريد استعلاءك. لن أعود طبعاً إلى شاطىء المدينة، ولا بد من أن هناك زاوية في هذه الجزيرة لم تصل إليها سمعتك وأنوي البحث عنها لأقضي بقية إجازتي بسلام».

فقال هازئاً وهو يقف أيضاً: «سلام؟ لقد فقدت كل أمل في ذلك عندما جئت إلى الفيللا أمس. وأنت تعرفين ذلك كما أعرفه، يا فتاتي. ولذا، لا تنظري إليّ بتينك العينين البريئتين المجروحتين».

فقالت بوضوح: «لو كان الخيار بيدي، لما نظرت إليك على الإطلاق».

واستدارت وسارت خارجة من المطعم مجتازة رصيف الميناء إلى الفندق.

٥ ـ عابر سبيل

هرب محظوظ...

هذا ما بقيت زو تحدث به نفسها مرة بعد مرة، وهي مستلقية على السرير تحدق إلى السقف.

تناولها الغداء مع أندريس ستيفانوس أكبر غلطة في حياتها، وخجلت من التفكير في ضعف شخصيتها الذي جعلها تخضع له.

لكنها أدركت بجفلة كم استمتعت بصحبته. والأسوأ هو الطريقة التي تأملت فيها الابتسامة الكامنة في عينيه السوداوين، وانحناء فمه الحازم الجذاب. شعرت أثناء هذه التصورات، بعضلات حلقها تتشنج بحماسة غير مألوفة.

لم تنكر أن أندريس ستيفانوس رجل ذو جاذبية خطرة، لكن قوله من دون خجل أن الكل في الجزيرة أصبح يعتبرها ملكه الخاص جعلها تعود إلى رشدها قبل أن يفوت الأوان.

أما ما لم تستطع أن تفهمه، فهو كيف استطاع أن يسيطر على فتيان الجزيرة؟ هل هو نفوذ مخدومه الغني؟ أم قوة شخصيته؟ لعل ذلك مزيج من هذا كله.

مهما كان، فهو شخص تريد أن تتجنبه.

عندما وصلت إلى الفندق كانت تلهث وقد أرهقتها حرارة الجو. أول ما قامت به هو الاغتسال، لكن هذا لم يهدىء أعصابها.

www.elromancia.com

هذا سخيف مضحك، كما أخذت تتمتم بعنف. لطالما اعتبرت نفسها متزنة، فكيف تفسر تأثرها البالغ برجل لم تره سوى مرتين، وفي كل مرة كانت تمضي في صحبته حوالى ساعتين؟

ودفنت وجهها في الوسادة وقد تملكها القلق. على أيّ حال، هذا ليس ما جاءت من أجله. فلديها هدف جاد لن تسمح لنفسها بأن تنساه.

فيللا دانا ستكون أرضاً محرّمة عليها من الآن فصاعداً، أو على الأقل حتى تجد فرصة تتحدث فيها إلى ستيف دراغوس وتعرف منه نوع العلاقة التي ربطته بأمها. وحتى حينذاك ونظراً لحالته الصحية الحالية، عليها توخّي الحذر التام في حديثها معه. أو لتدع الأمور كما هي وتعود إلى الوطن تاركة الماضي يحتفظ بأسراره، وتركز على المستقبل.

الملل هو الذي قادها إلى هذه الأفكار كلها وجعلها ترى فيها البديل الأفضل. لكن لوحة أمها ستبقى هناك تنتظرها، تذكرها على الدوام بأن ثمة لغز غامض لم يحل بعد، وأنها خسرت فرصة ذهبية. كما أن الهرب ليس من عادتها، مهما كانت الأسباب والدوافع.

لا. من الأفضل أن تبقى هنا، وتحل الأمور المعقدة كلها مرة واحدة مهما كانت النتائج. ولتدع أندريس ستيفانوس يرى أنها سائحة منيعة إزاء سحره الذي لا يقاوم.

ولكن، إذا كان هذا صحيحاً فلماذا لا تستبعده من المعادلة بكل بساطة؟ وتنبذه من ذهنها كما سبق وفعلت مع ميك وجورج المسكين؟

لأن الأمر ليس بهذه البساطة، وتملكتها التعاسة.

وبقيت تتململ حتى حان الوقت لكي ترتدي ثوبها الأسود القصير، وتضع زينتها ثم لتناول إلى العشاء.

* * *

سألتها شيري وهي تسكب لها العصير: «كيف كانت سياحتك

العظيمة في ليفاسي؟».

فأجابت زو: «كانت ممتعة حتى مع لاعبي النرد».

غمزتها شيري: «هل قابلت العم ستافروس؟».

أخذت زو توازن كلماتها: «أظنه كان على وشك المغادرة عند وصولي».

ولم تشأ أن تذكر أن وصولها دفعه إلى التبكير بالمغادرة. فقالت شيري ضاحكة: «ليس من عادته أن يغفل عن شقراء جميلة».

وابتعدت شيري لتلبي طلبات قادمين جدد، بينما أخذت زو ترشف شرابها مستمتعة. كلام شيري عن ستافروس العجوز قوّى الانطباع الذي تركه فيها. لكنها لم تكن مجرّد أي شقراء، بل كانت ابنة أمها، وقد لاحظ هو الشبه بينهما وانزعج لذلك. حسناً، ستعود إلى تلك الساحة غداً، فإذا حاول الاختفاء مرة أخرى، ستتبعه تطرح عليه بعض الأسئلة، مثل ما يعرفه عن أمها جينا، والوقت الذي أمضته في الجزيرة.

سمعت زو عزف الموسيقيين، فتذكرت أن شيري أخبرتها بأن الليلة ليلة راقصة. وحدثت نفسها بأن الوقت حان لكي تستمتع بوقتها.

بدا واضحاً أن حفلة السبت الراقصة في فندق ستافروس حدث اجتماعي حقيقي، لكن معظم الحاضرين كانوا من العائلات، ما أشعرها بالارتياح.

ابتدأت الحفلة بعرض قصير لفتى وفتاة يرتديان ملابس فولكلورية أخذا يشقان طريقهما بين الموائد مشجعين الضيوف على الانضمام إليهما. وعندما وصلوا إلى زو، هزت رأسها باسمة إذ لم تحسن الرقص قط في حياتها.

كانت مسرورة بالجلوس في زاويتها تصغي إلى الموسيقى الخفيفة. كانت تصفق على الإيقاع، وتركز اهتمامها على الراقصين عندما شعرت

فجأة بوخزة حادة امتزجت بالخوف تقريباً، ثم أدركت أن الموسيقى أخذت تهدأ فيما ساد السكون.

توقفت يداها عن التصفيق وانقبضتا فجأة فأخفتهما في حجرها، والتفتت إلى مدخل الفناء المضاء، بمزيج من الخوف والإثارة، مدركة بالضبط من سترى هناك.

وقف أندريس في المدخل الذي تعلوه قنطرة واضعاً يداً على وركه بإهمال، فيما أمسك باليد الأخرى بسترته على كتفه. كانت عيناه مركزتين عليها وعلى فمه ابتسامة خفيفة. كان يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض ناصعاً ثنى كميه إلى أعلى كاشفاً عن ساعدين أسمرين، فيما تدلّت سلسلة ذهبية ثقيلة من عنقه.

ارتعشت في داخلها وهي تراه رائعاً بشكل لا يصدّق. وعندما التقت نظراتهما أحنى رأسه برزانة وصمت، فانحبست أنفاسها... ماذا ستقول عندما يدخل... وماذا ستفعل؟

ثم نظرت إليه ذاهلة، وهو يستدير نحو طاولة في الناحية الأخرى من الفناء ليقف من يجلس إليها ويحيونه بجلبة وصخب.

هبط قلبها فجأة... هذا هو الأمر... إذن؟ ما كان لها أن تهتم بما عليها أن تقول، لأنه لا يريد أن يسمعه. ولكن ماذا كانت تتوقع؟

لعله أنفق كل ما يملك على ذلك الغداء، فتركته وخرجت. فلا عجب إذا بحث عن صحبة تناسبه أكثر.

وهذا يعني أنها حرة، وهذا ما تريده بالضبط. حسناً... أليس الأمر كذلك؟ لقد قامت بما هو صواب.

أخذت جرعة من شرابها والغضب يتملكها إذ أدركت أن حرباً بدأت بين ذاتها الواعية المنطقية وبين مخلوقة عاطفية حالمة لم تكن تعلم بوجودها في داخلها.

إنها ترى نفسها وقد افتتنت به بشكل لم تعرفه حتى عندما كانت تلميذة. رباه، هل ما تشعر به هو حزن؟

لا تستطيع أن تقف وتخرج من المكان بكل بساطة، إذ سيبدو وكأن لتصرفاته تأثيراً مؤلماً عليها، وكأن إهماله لها أزعجها. لا، عليها أن تبقى مكانها نصف ساعة أخرى على الأقل إن لم يكن أكثر.

وتملكتها التعاسة إذ كان عليها أن تظهر الاستمتاع بالموسيقى وعدم المبالاة بوجوده في آنٍ معاً، فيما كل ما تريده هو أن تعود إلى غرفتها وتدفن وجهها في الوسادة وتضع أصابعها في أذنيها، متظاهرة بأن هذا الألم في داخلها لا وجود له.

ارتجفت من رأسها حتى أخمص قدميها. لم تشأ أن تنظر ناحيته، لكنها وجدت عينيها تتجهان نحوه رغماً عنها. كان يحني رأسه يصغي إلى فتاة احتلت المقعد بجانبه، وهي مخلوقة داكنة العينين ذات فم شهواني كان الآن يكثر من الحديث والضحك.

رأت يدها على كمه، ورأسها على كتفه، ولم تكن قراءة لغة الجسد تلك تتطلب خبرة منها.

حمدت الله عندما عاد الراقصون فحوّل ذلك انتباهها عنه لكنها لا تستطيع أن تستمر بالجلوس بمظهر مشرق مستمتع وهي تنظر إلى أي مكان ما عداه.

ويبدو أنها لعبت دورها بشكل جيد لأنها هذه المرة لم تشعر باقترابه إلا بعد أن سمعت صوته يقول: «هل ترقصين معي؟».

أجفلت، وكانت يدها متشبثة بالكأس فاندلقت منها آخر قطرة على غطاء الطاولة. قالت بصوت لاهث أكثر منه ساخط: «أنظر ماذا فعلت».

ـ أظنهم سيسامحوننا. والآن تعالي.

نهضت، لكنها عادت فتراجعت: «لا أعرف أياً من هذه الخطوات».

ـ سأعلمك.

ومشى خلفها، قريباً منها من دون أن يلمسها، كانت تشعر بالأعين تنصب عليها من كل النواحي، فتوهج وجهها. وهمست بسرعة: «أندريس... لا أستطيع...».

فقال بهدوء: «بل تستطيعين يا عزيزتي».

وأخرج من جيبه منديلاً أبيض نفضه ثم ناولها طرفه وهو يبتسم ساخراً: «أترين؟ ليس علينا أن نتلامس حتى. هناك خطوات معيّنة عليك أن تكرريها. انظري إلى ما تفعله سولا وقلّديها».

أطاعته وأخذت تنظر إلى قدميّ الفتاة في الجوربين الأبيضين والحذائين الأسودين المنخفضي الكعبين. وبعد أن تعثّرت في البداية، أخذت تنسخ خطواتها مصغية إلى إيقاع الموسيقى، التي كانت أكثر انتظاماً من دقات قلبها. وتدريجياً، أخذت تسترخي. ضحكت حين وجدت نفسها تُدار إلى جانب، ثم إلى الجانب الآخر. وشهقت عندما قفز الراقص أمامهما في الهواء ثم أخذ يؤدي سلسلة من الحركات المحيرة.

لكنها كانت واعية طوال الوقت إلى الرجل الذي كان يمسك بطرف المنديل حريصاً على حفظ المسافة بينهما.

تملّكها الأسف تقريباً عندما توقفت الموسيقى وتفرّق الراقصون اللاهثون.

وجدت نفسها تعود إلى مائدتها. كان الغطاء الملطخ قد استبدل ووضع المزيد من العصير مع كؤوس نظيفة وأكواب قهوة ثقيلة سوداء شديدة الحلاوة. كان أندريس يجلس بجانبها عندما أخذت تفكر، وهي ترتجف، في أنه خطط لكل هذا منذ البداية...

قال لها برقة: «إذن، كنت تكذبين علي يا عزيزتي...».

ـ أكذب؟

خفق قلبها وهي تفكر في أنه يعلم من تكون، ولماذا جاءت إلى تانيا. لم تكن مستعدة لمواجهة كهذه... ليس معه على الأقل. قالت: «لا... لا أفهم».

ـ أخبرتني أنك لا تحسنين الرقص.

ـ آه، آه... عن ذاك.

ـ نعم... ذاك. وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ تحتاجين بعض التدريب لتصبحي ماهرة.

وتساءلت عما إذا كان حديثه عن الرقص أم الكذب؟

ـ وهل هذا ضروري؟

ـ نعم، إذا كنت مصممة على العيش في فيلا دانا أم أنك غيرت رأيك؟

ـ هذا يتوقف على المفاوضات مع مخدومك. حدثني عن ستيف دراغوس.

فقال متأملاً: «ماذا تريدين أن تعلمي؟».

ـ أولاً، كم يبلغ عمره؟

وفكرت في ما إذا كان يعرف فتاة اسمها جينا جاءت ذات مرة إلى هنا.

ـ لم يعد شاباً، رغم أنه لن يشكرني على قولي هذا. وهو ما زال يتأثر من ابتسامة فتاة جميلة، إذا كان هذا ما تريدين معرفته.

قال هذا بجفاء فاحمر وجهها: «ليس هذا ما عنيته على الإطلاق. يبدو... يبدو أنك تحبه كثيراً».

ـ كانت معاملته لي حسنة، على مر السنين... على طريقته الخاصة.

ـ لقد اشترى ولاءك إذن.

وفكرت في أنه دفع مالاً كثيراً، نظراً للسلسلة الذهبية الثقيلة في عنقه والساعة «الرولكس» في معصمه، هذا إذا لم يكونا زائفين.

انتصب أندريس في جلسته ولمعت عيناه وبانت القسوة على شفتيه فجأة: «أتظنينني للبيع؟ أنت مخطئة. فأنا لست لأحد سوى نفسي».

فرفعت رأسها: «لكنك تأخذ نقوده».

ـ أنا آخذ راتباً لقاء عمل. إياك أن تشكي في ذلك عزيزتي!

فسألته بجرأة: «وهل إخافة الناس من مهام عملك؟».

عبس لحظة ثم عاد فضحك: «ومن ذا الذي أخفته؟ ليس أنت بكل تأكيد».

ـ رأيت تأثيرك في ذينك الغلامين الأحمقين اليوم. وعندما دخلت إلى الحفلة، توقف الجميع عن الحركة.

فقال بشيء من السخرية: «أحقاً فعلوا ذلك؟ لم ألاحظ. لم أر سواك».

فابتلعت ريقها: «هذا... غير صحيح».

ـ لكنني هنا، معك دون سواك.

فتسارعت أنفاسها: «لماذا؟ لأنني تركتك في المطعم وخرجت فأردت أن تستعيد سيطرتك، كيلا تفقد ماء وجهك».

نظر إليها طويلاً بثبات: «هل هذا حقاً ما تظنينه؟ أنّ علي أن أثبت شيئاً؟».

عضت على شفتها وأخيراً قالت: «لا. هذا ليس ما أظنه. لكنني ما زلت لا أفهم لماذا يهابك الناس».

بقي يتأملها بملامح غامضة: «ربما أستفيد من احترامهم لمخدومي».

ـ هل هو حقاً بهذه القوة والنفوذ حتى من بعيد؟

ـ عليك أن تحكمي عليه بنفسك بعد أن تقابليه.

فقالت من دون حماسة: «نعم، أظن ذلك. ألا تعلم متى سيكون ذلك؟».

ـ حالما يسمح له الطبيب. إذا كنت عديمة الصبر، فربما عليّ أن أعرفك إلى صديقي ديميتريوس، فهو سمسار وقد يساعدك في العثور على بيت آخر يعجبك.

فأسرعت تقول: «لا».

قطب جبينه: «أتعنين أنك لا تريدين سوى ڤيللا دانا؟ لماذا؟».

كانت على أرض خطرة، لكنها استطاعت أن تبتسم: «ڤيللا دانا ممتازة. لم أجد مثلها. كما أن أحداً لم يسكنها ويستمتع بها. أرى في ذلك مأساة».

فقال برقة: «ولكن حتى جنة مثل جزيرة تانيا لها حصتها من المآسي. ربما ليس من الحكمة أن تركزي قلبك على هذا المنزل بالذات. لقد وافق... مخدومي على أن يقابلك، ليس إلاّ».

مرّت لحظة أغرتها بأن تفضي إليه بسرّها، أن تخبره السبب الذي جعلها تأتي إلى تانيا. لكن المنطق منعها من أن تقدم على مثل هذه الحماقة. أندريس يعمل لحساب ستيف دراغوس، فهل من المحتمل أن يشترك في أمر قد يتعارض مع مصلحة مثل هذا المخدوم الواسع النفوذ؟

سيتصل به على الفور ويحذره، لأن خسارة مثل هذا المنزل الرائع أمر غير سهل.

مهما حدث في الماضي، ومهما كانت الوعود فقد تغيّر الزمن وما من شيء يضمن أن السيد دراغوس سيدع ڤيللا دانا تخرج من يده من دون مقاومة.

ومهما أبرزت من مستندات قانونية، فبإمكانه أن يوكل عدداً من كبار

www.elromancia.com

المحامين الدوليين لكي يواجهوها. كما أنّ غريزتها حدثتها بأن أي عون يمكن أن تحصل عليه من أندريس ستيفانوس قد يكلفها أكثر مما يمكنها أن تمنحه.

ولذا، رأت أن من الأفضل أن تحتفظ بسرها لنفسها وتفاجيء ستيف دراغوس على حين غرّة، إذا أمكنها ذلك.

ابتسمت له: «حسناً، ليس عليّ سوى أن أتفاءل بالخير».

ـ وإذا لم ينجح ذلك ولم تحصلي على المنزل، فهل سترحلين؟

ـ يُفترض بي ذلك.

استند إلى الخلف وراح ينظر إليها بعينين شبه مغمضتين. رأته يطيل النظر إلى شعرها الأشقر وإلى فتحة عنق ثوبها الأسود.

نظرته جعلتها تحلم بعناقه... فارتعشت خجلاً.

ابتسم وكأنه عرف ما يجول في ذهنها: «عليّ إذن أن أجد طريقة لأقنعك بأن تغيري رأيك».

ـ ولكن لعلي مثلك.

فقطب جبينه: «مثلي؟».

قالت تذكره: «أنت قلت إنك لست لأحد سوى نفسك. وكذلك أنا. فأنا أفعل ما يرضيني فقط».

ـ ولكن قد يأتي وقت تريدين فيه أن... ترضيني.

مرّت لحظة توتر سريعة ثم هزت كتفيها: «يبدو لي أن أناساً كثيرين يقومون بذلك».

قالت هذا بمرح محاولة ألاّ تنظر إلى المائدة الأخرى في آخر الفناء، وإلى النظرات الغاضبة والكئيبة التي وجّهها إليهما الجمال اليوناني.

قال لاوياً شفتيه: «ربما أرسلك الله إلى تانيا كي اكتشف أنّ سلوكي

خاطىء».

ـ أظن أنّ ذلك سيأخذ من وقتي أكثر مما يمكنني توفيره.

فابتسم لها: «أظنك على حق، فقد يستغرق ذلك الحياة كلها. لكني سأعلّمك الرقص وهذا أسهل بكثير».

ووقف مضيفاً: «تعالي».

حسناً، هذا أمر يمكنها الموافقة عليه، كما فكرت وهي تنهض لتلحق به. ولعله الأمر الوحيد. وتنهدت.

* * *

كانت سهرة لا تنسى... دوّامة من الأصوات والأنغام تحبس الأنفاس لم تسمح لها بالتفكير، أو بالتساؤل عن حكمة تصرفاتها. كان رأسها يدور، وشعرت وكأنها تطير.

كان أندريس بجانبها طوال الوقت، معها إلى المائدة، يهمس لها مشجعاً، وعيناه السوداوان لا تفارقان وجهها السعيد المتوهج.

قالت ضاحكة وهي تتكىء إلى أحد الأعمدة الخشبية التي تسند العريشة فوق الرؤوس: «هذا يكفي».

ـ لكن الليل ابتدأ لتوّه.

فهزت رأسها: «ليس بالنسبة إليّ. أنا بحاجة إلى بعض الراحة، وإلا قد لا أستطيع السير صباحاً لأن قدميّ ستؤلمانني».

فقال بهدوء ولكن بإلحاح: «اركبي إذن. سأحضر سيارة الجيب في الساعة العاشرة لأريك جزيرتي».

ترددت زو. الرقص معه وهي محاطة بالناس شيء، وقضاء يوم كامل وحدهما شيء مختلف تماماً.

قالت مترددة: «أندريس...».

نظر إليها متفحصاً لحظة: «نعم يا عزيزتي. هل أنت خائفة إلى هذا

الحد من أن تكوني معي؟».

ـ لا، طبعاً لا.

فقال ضاحكاً: «كاذبة، لكني أقسم لك أنه ليس هناك ما تخافينه. أنت تشرفينني بصحبتك ليس إلاّ. كما أنني لن أطلب منك شيئاً لا تريدين أن تعطيه».

ووضع إصبعه تحت ذقنها يدير وجهها إليه: «والآن، هل ستأتين معي؟».

سمعت نفسها تقول: «ولِمَ لا؟».

وفي الوقت نفسه كان لديها ألف سبب معقول للرفض. لكنها ألزمت نفسها ولن تتراجع عن كلمتها. كرامتها لن تسمح لها بذلك.

شعرت بإبهامه يلامس خط فكها برقة ريشة ما جعلها تشهق غريزياً.

تراجعت بسرعة، وحوّلت وجهها بعيداً. وهذه الحركة المفاجئة كانت كافية لينسدل شعرها غير الثابت أصلاً فوق رأسها على كتفيها.

أرادت أن تنحني لتلتقط المشبك الذي سقط من شعرها على الأرض لكن أندريس كان أسرع منها فالتقطه وهو يقول: «دعي شعرك منسدلاً بهذا الشكل. إنه رائع الجمال. وقريباً، سيكون منثوراً على الوسادة على أيّ حال».

احمر وجهها. كانت الصورة شخصية وحميمة جداً. وأرادت أن تحوّل أفكارها بسرعة قبل أن ترى عيناه الخبيرتان المشاعر التي أحدثتها فيها كلماته فمدت يدها: «هل لك أن ترد إليّ المشبك؟».

ـ بعد أن تري الجزيرة معي.

قال هذا وهو يضعه في جيب بنطلونه، فعضت شفتها: «قد أرى أن تلك الجولة لا تستحق التعب».

ـ إذن، سيبقى المشبك معي تذكاراً غالياً منك.

فقالت بمرارة: «لديك جواب على كل شيء، أليس كذلك؟».

فانحنى ببرودة وتهذيب: «ليس الآن، لكنني أعيش على الأمل. إلى اللقاء غداً».

فقالت متوترة: «تصبح على خير».

ثم سارت تشق طريقها بين الموائد غير مكترثة بالنظرات الفضولية المصوّبة إليها من كل ناحية.

وفي غرفتها، ألقت حذاءها بعيداً وارتمت على السرير، دافنة وجهها بين ذراعيها.

سأمضي النهار معه غداً... لا بد أنني مجنونة... وتأوهت. حاولت أن تعزي نفسها بأنها فرصة لترى كل أنحاء الجزيرة مع شخص من أبنائها. لكن هذا بقي مجازفة كبيرة وهي تعلم ذلك.

وأجابت نفسها بعناد بأن هذا غير صحيح... وأنه قال إنه لن يفعل ما لا ترضاه. لكنه يعلم بأنها تريده، وأنها مع شيء من الوقت والصبر، سوف تستسلم.

جلست ببطء، دافعة شعرها عن وجهها. هذا هو السبب في أنه لم يتقرب إليّ، هذه الليلة. فهو لم يكد يلمسني... سوى مرة واحدة.

أثناء الرقص كان يفرقهما دوماً ذلك المنديل السخيف. لم يكن بينهما أيّ احتكاك حقيقي على الإطلاق.

وأدركت أنها كانت لعبة واضحة. كما أدركت أن ما يثير أعصابها أيضاً أنها ما زالت لا تعلم شيئاً عنه. صحيح أن السهرة لم تكن مناسبة لتبادل الحديث والأسرار، لكنه يبدو أكثر غموضاً مع كل ساعة تمر.

لكن إذا كان هو بستاني فأنا هيلين ملكة طروادة.

ما زالت تسمع صوت الموسيقى الخفيف. لا بد أنه عاد إلى الفتاة

اليونانية وأقنعها بالعودة إلى الابتسام. وربما استطاعت أن تقنعه بأن يمضي نهار الغد معها بدلاً منها. على أيّ حال، هما يعيشان هنا بينما زو مجرد عابرة سبيل.

خلعت ثيابها ثم غسلت الزينة الخفيفة عن وجهها ومشطت شعرها. إنه كث وحريري، لكنه لا يجعلها جميلة. ما من شيء استطاع أن يجعلها كذلك رغم أنها تُعد جذابة.

وضعت الفرشاة وهي تفكر في أن عليها أن تشتري مشبكاً فضياً آخر لشعرها بدل الذي أخذه أندريس.

وإذا لم يأت أندريس غداً...

إنها متعبة تريد أن تنام، لكنها لم تستطع التخلص من كل تلك التصورات. شعرت بجو الغرفة خانقاً وبأغطية السرير خشنة وكأنها ورق زجاج.

وأخيراً، نهضت وارتدت عباءتها ثم خرجت إلى الشرفة. أخذت تتنشق نسيم الليل من الميناء، مصغية إلى تلاطم أمواج البحر وصوت ارتطام هياكل السفن. كانت أضواء الفندق مطفأة بعد أن تفرق الراقصون. أندريس أيضاً، قد يكون في مكان ما... وربما ليس وحده.

أذهلها أن تكتشف كم تؤلمها هذه الفكرة، وكم يصعب عليها أن تتخلص من صورة أندريس بين ذراعيّ امرأة أخرى.

ووجدت نفسها تتساءل أي نوع من العشاق يمكن أن يكون؟

منذ تعارفا، لم يلمسها ولم يعانقها ليزيد من شوقها إليه مع كل لحظة تمر، حتى لا تعود تقوى على الانتظار.

ارتجفت، وحدثت نفسها بقنوط بأن هذا لا يهمها كما أنه هو نفسه لا يهمها أيضاً.

لكنها عرفت أنه مهما كان المكان الذي أمضى أندريس ليلته فيه، فسينتظرها صباحاً أمام الفندق حسب الموعد.

بعد ساعات قليلة من الآن، سأرافقه هذه المرة فقط ثم لا أعيد الكرّة على الإطلاق، لأن هذا خطير للغاية ولا يمكنني القيام بهذه المجازفة.

وفجأة شعرت بمذاق دموع الوحشة والمرارة في حلقها.

www.elromancia.com

٦ ـ سوف أرعاك

في الصباح أمضت دهراً في اختيار ما سترتديه. ووجدت نفسها تلبس ثم تخلع كل ما أحضرته معها من ثياب.

وأخيراً، اختارت ما يمكن أن ترتديه لو أنها ستمضي النهار وحدها... وذكرت نفسها بأن هذا ما قد يحدث... فارتدت ثوب السباحة وفوقه بنطلوناً أبيض وقميصاً جيلاً باللونين الأزرق والذهبي.

كان شعرها مسرحاً إلى الخلف ومربوطاً عند رقبتها.

نظرت إلى ساعتها، إنها التاسعة والنصف. ما زال لديها الوقت لتناول الفطور. لعل الطعام سيهدىء من التوتر في معدتها، رغم شكها في ذلك. لكنه سيمنحها على الأقل ما يشغلها بدلاً من ذرع غرفتها بقلق.

خدمتها شيري بسرعة وكفاءة، لكن زو لاحظت أن حماستها المعتادة خافتة. فسألتها مداعبة: «ما زالت آثار الحفلة بادية عليك؟».

ـ لم أجد وقتاً لأرتاح.

ـ كانت سهرة رائعة، ولكن كيف احتملت كل ذلك العمل؟

ـ في كل يوم أحد أسأل نفسي هذا السؤال. دعك مني الآن. الحنين إلى الوطن يتملكني هذا الصباح.

ـ أنت إذن لا تنصحين بالعيش في جزيرة تانيا؟

فقالت شيري بلهجة لاذعة: «بالعكس. إنها رائعة... مع الشخص المناسب».

فسألتها زو دهشة: «وماذا فعل ستافروس كي يكدرك؟».

ـ اختلاف بسيط في الرأي، وهذا كل ما في الأمر. ما هو برنامجك لهذا النهار؟

أجابتها مترددة: «سأقوم بجولة في الجزيرة مع أندريس... وهو الرجل الذي رقصت معه الليلة الماضية».

فقالت شيري بنبرة غريبة: «لاحظت ذلك. كيف تعارفتما؟».

ـ أخبرتك أنه بستاني فيللا دانا، ولكن نظراً للطريقة التي استقبله بها الجميع لحظة دخوله لا بد أنه يدير عملاً آخر.

أطلقت شيري ضحكة عالية: «هل أخبرك بشهرته؟».

ـ إنه ستيفانوس. أندريس ستيفانوس، لكن لابدّ أنك تعرفينه.

ـ كنت أراه قريباً من هنا، لكنه لا يأتي غالباً إلى حفلاتنا الراقصة. أظن أن رئيسه يثقل كاهله بالعمل. قلت إنك سترينه اليوم؟

ـ نعم، ألا تظنين هذا شيئاً حسناً؟

ونظرت إلى شيري متسائلة.

ـ هذا ليس من شأني، ولكن... انتبهي إلى نفسك فقط.

فابتسمت زو: «هذا ما أنويه. ليس عليك أن تقلقي».

ـ لا أدري ما إذا كنت تعرفين ما أنت مقدمة عليه.

وسكتت مع اقتراب زوجها المفاجىء الذي قال بابتسامة جافة: «عزيزتي، بعض الزبائن يطلبون غداءً يحملونه معهم. فهل لك أن تهتمي بهم؟».

عضت شيري شفتها: «في الحال».

نظرت زو إليهما وهما يذهبان، وقد تملّكتها الدهشة. وعندما سارت إلى بهو الاستقبال، سمعت جدلاً خافتاً لكنه عنيف من داخل المكتب.

عبست زو، فقد أحبتهما، ومهما كانت المشكلة بينهما، تمنت لهما

التغلب عليها قريباً.

ثم رأت سيارة الجيب متوقفة أمام الفندق وأندريس خلف مقودها فنسيت الاعتبارات الأخرى كلها.

رفع يده بالتحية وهو يراها تقف مترددة أعلى الدرجات، وقفز من السيارة ليحمل لها حقيبة يدها ويفتح لها باب السيارة.

- مرحباً، هل نمت جيداً؟

لم تجد فائدة من إنكار السواد تحت عينيها، فأجابت: «فالحر لا يطاق، والهواء ساكن تماماً».

وتفكيرها به شغل ذهنها ورفض أن يتزحزح.

فقطب جبينه: «سأطلب من ستافروس أن يضع مروحة في غرفتك».

- وهل ستافروس تحت أمرك هو أيضاً؟ هذا قد يفسر شيئاً.

ألقى عليها نظرة جانبية بينما السيارة تصعد بهما التلة إلى الساحة: «وماذا قد يفسر هذا؟».

نظرت إليه ببرودة وردّت: «لا أظن أنّ زوجته يعجبها أن أقضي كثيراً من الوقت معك، وأخشى أن يكونا قد تخاصما بسبب ذلك».

- أنا آسف لسماعي هذا. لكن الخصام الزوجي جزء من الحياة، ولا شك في أنهما سيستمتعان بالصلح في النهاية... هل أشارت زوجة ستافروس إلى سبب عدم استحسانها ذاك؟

- ليس تماماً. لعلها تظن أنك تلعب دور الدليل لسائحات كثيرات أخريات.

فقال بنبرة حادة قليلاً: «إنها إذن مخطئة، فأنت الأولى».

- حسناً، أرجو ألاّ تستاء من ذلك.

أدركت فجأة أنها قالت أكثر مما ينبغي، فغضب أندريس قد يكون

عنيفاً. وقالت محاولة تهدئته: «أظنها... قلقة عليّ وحسب».

فقال بابتسامة باهتة: «وأنا أشاركها هذا. لذا، لتدع الخوف جانباً فأنت آمنة معي».

وصلت السيارة إلى الساحة، وخففت من سرعتها قليلاً لتدع صبياً يقود جروراً يقطع الطريق أمامهما.

التفت أندريس إليها وقد رقت ملامحه: «وأنت تصدّقين هذا، أليس كذلك يا عزيزتي؟».

فابتلعت ريقها: «نعم... طبعاً أنا أصدّق».

وكان هذا صحيحاً، رغم أنها لم تعرف من أين أتت بهذه الثقة. لعلها ساذجة إلى حد مفزع، وستندم طوال حياتها.

أمسك بيدها قائلاً بلطف: «يومنا يبدأ هنا، إذن».

احمر وجهها، ونظرت في أنحاء الساحة. كان لاعبو النرد قد ابتدأوا اللعب.

كان من بين اللاعبين العم ستافروس الذي وقف يحدق إليها ثم إلى مرافقها مسمّراً عينيه فاغراً فاه وكأنه ينظر إلى شبح.

أجفلت وقد شعرت بقوة نظراته كصفعة على وجهها. وعندما تابعت السيارة سيرها، رأته يتقدم خطوة إلى الأمام رافعاً عصاه وقد التوت ملامحه بعبوس عاصف.

قال لها وهو يراها تشهق فجأة: «هل من خطب ما؟».

- لا، لاشيء.

لن تزيد من مشاكل أسرة ستافروس. لكن، ما قضية الكل اليوم؟ وتملكها الارتباك. وأسرعت تقول في محاولة منها لاستعادة اتزانها الذي اهتز لتلك الحادثة الصغيرة: «الكنيسة جميلة جداً، أليس كذلك؟ لقد زرتها أمس».

فضحك: «هل رأيت أيقونة عذراء الكهف؟».

ـ ليس بعد أن حذرتني شيري منها.

ـ أشك في أن تقوم الأيقونة وحدها بالكثير. رغم أنني بطبيعة الحال لم أجرب قدرتها في الحمل.

قالت زو محاولة أن تبدو جادة ففشلت فشلاً ذريعاً: «طبعاً لا».

فقال حين ضحكت: «هذا أحسن. أحياناً يبدو وكأنك تحملين هموم الدنيا كلها على كتفيك».

ـ ربما لأنني لم أتعود على الإجازات.

أو التعرف إلى رجل مثله.

فقال بهدوء: «إذن سأجعل منها إجازة غير عادية. يسرّني أن أرى أنك تنتعلين حذاءً يمكنك السير به. فكرت في أن نذهب أولاً إلى «جبل إديرا» قبل أن تزداد حرارة الجو».

وفكرت هي في أن الجو حار منذ الآن لكنها لم تقل شيئاً.

تابعت الجيب تقدّمها، وأصبحت ليفاسي خلفهما. كانا يصعدان طريقاً يلتف حول أشجار الزيتون التي راحت أوراقها الفضية تلمع في الشمس.

سألته لاهثة: «أرى أنّ نظام الطرق هنا ناجح تماماً».

ـ حركة السير تعتمد في معظمها على الدواب.

أصبح الطريق أكثر انحداراً وتحولت أشجار الزيتون إلى أشجار صنوبر ما جعل الجو أكثر برودة ومثقلاً بالعطر.

تحوّل أندريس عن الطريق العام وأوقف الجيب تحت الأشجار، ثم قال: «من هنا علينا أن نسير، هذا إذا لم يكن جسمك مزعوجاً من الرحلة في الجيب في مثل هذا الطريق الوعر».

فقالت بمرح: «جسمي أصلب مما يبدو».

توقّعت أن يمسك بيدها لكنه لم يفعل. وفي بعض الأحيان كان عليها أن تركض لكي تواكب خطواته الواسعة، لكن عندما وصلا إلى الرصيف الاسمنتي والمشرف على ما حوله، نسيت كل شيء وشهقت عجباً، ثم قالت بصوت مرتجف: «يا إلهي... هذا رائع للغاية».

ـ نعم. كلما أتيت إلى هنا، لا أصدق أنني أمضي الوقت في مكان آخر.

تحت ناظريهما امتدت خضرة الجزيرة، مرقطة ببقع مختلفة الألوان هي سطوح المنازل المصنوعة من القرميد الملوّن ومحاطة بحاشية فضية باهتة هي الرمال البيضاء، وخلف هذا المحيط من الألوان امتد البحر إلى الأفق، لا يخترق صفاءه سوى الجزر المجاورة.

ـ تلك جزيرة زاكنتوس، وتلك هي كافيلونيا.

فهزت رأسها: «إنهما تبدوان من القرب بحيث يمكنك أن تلمسهما».

فقال بكسل: «أنصحك بزيارتهما بالوسائل التقليدية. يمكننا أن نبحر إليهما ذات يوم، إذا شئت».

وعندما لم تجب على الفور، قال بلطف: «وتلك الجزيرة الصغيرة بقرب كافيلونيا هي إيثاكا. إنها المكان الذي كافح أوديسوس للعودة إليه منذ سنين طويلة».

فغضنت أنفها: «حسب ما قرأت عنه، لم يكن يكافح بقوة. بل استسلم للهو، وخصوصاً مع البنات الجميلات».

فاعترض هازلاً: «لقد انتظرته زوجته بصبر ووفاء طوال تلك السنوات، وهذا يعني أنه لم يكن سيئاً تماماً ما دام يلهمها كل ذلك الوفاء».

قالت مترددة: «أندريس... أنا لم أشكرك أمس على إنقاذك لي، أريد أن أعتذر لهذا».

فهز كتفيه: «هذه ليست مشكلة، فقد كنت متكدرة. أترين ذلك الخليج الصغير؟ ربما بإمكاننا أن نسبح فيه عصر هذا النهار. هذا طبعاً إذا كنت قد أحضرت ثوباً للسباحة».

ـ وإن لم أفعل؟

ابتسم: «سنسبح، لكنني سأبقي عيني مغمضتين. ومع ذلك، أراهن على أن هذا لن يكون ضرورياً، وأنك ترتدين ثوب سباحة تحت هذه الملابس الجميلة».

عضت زو شفتها المرتجفة: «أنت تعرف الكثير يا سيد ستيفانوس».

ـ ربما لأنني أحب أن أنظر، والنظر إليك أمر بهيج. وماذا عنك أنت؟ هل ترين ما يكفي؟

وابتسم لها ابتسامة عريضة، فشعرت بوخزة مفاجئة. إذا كان يعني نفسه، فهي لن ترى منه ما يكفي ولو بقيت تنظر إليه طوال حياتها... وهذه الفكرة لم تمنحها أي بهجة أو سكينة.

استدارت بسرعة وهي تظلل عينيها بكفها: «هل يمكننا أن نرى فيللا دانا من هنا؟».

ـ نعم، إذا كان لديك عينا صقر.

وأمسك بكتفيها يديرها قليلاً: «ذلك هو الشاطىء وتلك البقعة الصغيرة هي السطح... أترين؟».

أخذت تنظر، ثم سألته: «وأين هو بيتك؟».

فرفع حاجبيه: «أتريدين أن تزوريني؟».

فأنكرت بسرعة: «لا. مجرد فضول».

فقال بعد لحظة صمت: «ليس من السهل تمييزه من هذا الارتفاع. السطح من القرميد الأخضر وباهت قليلاً. لكني، سأريك إياه قريباً إذا شئت».

ـ حسناً... ربما. هل نعود أدراجنا الآن؟

إذا كان صعود الجبل صعباً، فنزوله أصعب. فقد وجدت أنها لا تنفك تنزلق على التراب والحصى.

وزلّت قدمها فأخذت تصرخ وهي تنحدر إلى أسفل التلة. فاستدار أندريس الذي كان يتقدّمها وأمسكها يشدّها إليه لكي يثبتها. وبعد ثوان، شعرت بقوته وحرارته تخترقان ثيابها وكأنه لا وجود لها. كانت تشعر بأنفاسه على وجهها، فأخذت تتشمم رائحته بنهم. وعندما اشتدت قبضته، ظنت أنه سيعانقها، وتملك كيانها الشوق والبهجة.

وإذا بها تجد نفسها حرة، تقف على مسافة قصيرة منه. شعرت برغبة في البكاء لخيبة أملها ولما رأته رفضاً منه لها.

التهب وجهها ولم تستطع مواجهة نظراته. وتمتمت: «آسفة، فقد كنت ثقيلة الحركة».

ـ لا. أنا المخطىء فقد وعدت بأن أرعاك.

وأمسك يدها بحزم طوال الطريق، يساعدها في اجتياز الأمكنة المنحدرة من الطريق.

وعندما وصلا إلى الجيب، كان قلبها يخفق بسرعة، إذ أدركت أن رغباتها ومشاعرها كانت واضحة بشكل مخجل. لا يمكن أن يغفل عن الدلائل الواضحة التي صدرت عنها عندما أخذها بين ذراعيه فلماذا تجاهلها؟

(لن أطلب منك ما لا تريدينه يا عزيزتي).

كلماته ما زالت ترن في أذنيها. لكنها أرادت منه أشياء. وتملكتها التعاسة. أرادت أن يطوّقها بذراعيه ويعانقها، لكنه ابتعد عنها، ابتعد بكل لباقة وتهذيب... لكنه ابتعد.

ربما ندم على ملاحقتها، وتعب من اللعبة التي يلعبها فقرر أن ينهيها.

أغلق باب السيارة، ثم أخذ يتأملها مقطباً جبينه: «هل أنت بخير، يا عزيزتي؟».

حدثت نفسها بأن تتصرف بشكل طبيعي، فتعود إلى وضعهما الأول، وكأن اللحظات الماضية لم تحدث. فقالت نصف هازلة ونصف معتذرة: «أنا عطشى قليلاً. لقد نسيت أن أحضر معي زجاجة ماء».

ـ لدي بعض الماء في صندوق التبريد... ولكن... لدي فكرة أفضل، إذا أمكنك الانتظار دقيقة أو اثنتين.

فقالت بهدوء ومودة: «كما تشاء. أنت المسؤول هنا».

توقعت أن يأخذها إلى مقهى في قرية ما، لكنه قاد الجيب إلى آخر الطريق حيث انعطف إلى ممر بين أشجار الزيتون حتى وصلا إلى بيت بطابق واحد أبيض اللون. بدا المنزل أنيقاً للغاية بالرغم من الدجاج الذي يلتقط الطعام أمام بابه.

خرجت امرأة قصيرة ترتدي السواد وتكشف ابتسامتها الواسعة عن فجوات بين أسنانها. وعندما نزل أندريس من الجيب ليحييها، انفجرت بفيض من الحديث باللغة اليونانية وهي تربّت على كتفه.

ثم حملت إبريقاً من على طاولة أمام الباب، ودارت به إلى ما وراء المنزل.

قال أندريس وهو يفتح باب السيارة: «انزلي يا عزيزتي وتعرفي إلى أندرولا. إنها صديقة قديمة وقد ذهبت لتحضر لنا ماءً من نبعها الخاص الذي ينحدر مباشرة من الجبل».

خرجت زو من السيارة ونظرت حولها: «هل أنت واثق من أننا لا نتطفل عليها؟».

ـ إنها تعشق الناس. وسيسرها جداً أنني أحضرتك إليها.

ـ هل تعيش وحدها هنا؟ المكان يبدو منعزلاً تماماً.

ـ لا. إنها تعيش مع زوجها سيبروس.

عادت أندرولا بسرعة وقدّمت إبريقها الممتلىء إلى زو باسمة.

كان الماء صافياً كالبلور وبارداً بحيث جعلها تشهق. شربت بعطش بالغ واستمتاع.

أخذ أندريس الإبريق منها بعد أن انتهت، وأدهشها أنه شرب منه هو أيضاً بينما أندرولا تبتسم وتومىء مسرورة.

وضعت أندرولا يداً سمراء على ذراعها، وأشارت إلى البيت بيدها الأخرى. فقال أندريس: «تريدك أن تدخلي بيتها وتتذوّقي كعك العسل الذي تصنعه. وهذا يعني أنك تسدين لها معروفاً كبيراً».

فقالت زو بمرح: «وكيف أرفض إذن؟».

لفتها جدار يبعث الإشراق في الغرفة الكئيبة نوعاً ما إذ كان مغطى من الأعلى إلى الأسفل ببطاقات بريدية مصورة من كافة أنحاء العالم. ورآها أندريس تنظر إليه فقال: «إنها من ابنهما، فقد كان بحاراً تاجراً وسافر إلى كل مكان. كان يرسل إليهما بطاقات من كل مكان يصل إليه لكي يعلموا أنه بأمان».

ـ وهل ما زال بأمان؟

ـ نعم، فقد تعرف إلى فتاة أسترالية، وهو يعيش الآن في «كوينز لاند». وكل ستة أشهر يرسل إلى والديه ثمن تذكرتي سفر ليزوراه. لكنهما، وبدلاً من ذلك، يودعان النقود في المصرف ليبقى المال له في ما لو حدثت له مشكلة.

ـ يا إلهي! أتظنهما سيزورانه يوماً ما؟

ـ أشك في هذا. ربما سيكون عليه أن يحضر بنفسه مع زوجته وابنه. عندئذ، سيبقى هنا، أو هذا ما تعتقده أندرولا.

ـ أتظنه سيتخلى عن الحياة الجيدة في أستراليا ليعيش في تانيا؟ لماذا؟

فقال بعد لحظة: «من أجل ماء النبع. الخرافة تقول إن كل من يشرب من مياه هذا النبع يعود إليه».

في الصمت المطبق الذي تلا، سمعت زو صوت ابتلاعها ريقها. ثم قالت بصوت أجش:

ـ الحمد لله لأنني لا أؤمن بالخرافات.

فابتسم لها برقة: «ولا أنا».

كان كعك العسل لذيذاً، ومدحته زو من دون تحفظ فيما راح أندريس يترجم كلامها للمرأة.

وعندما حان وقت خروجهما، وجدت زو يديها بين يدي المرأة الخشنتين، وهذه تتحدث إليها بنعومة وجد. وعندما خرجا إلى ضوء الشمس، سألت زو أندريس عما قالته المرأة لها، فرد بصوت جامد: «قالت إنها ستصلي للعذراء لكي ترزقك أولاداً طوال القامة».

ـ هذا رائع. مستقبلي كله خططته جرعة الماء تلك. سأشرب من الآن فصاعداً من زجاجات ماء «معدني».

لم يقل أندريس شيئاً بل اندفع بالجيب مثيراً الغبار والحصى.

ساد الصمت بينهما حتى قطعته زو: «هل نحن ذاهبان إلى خليج أوديسوس؟».

ـ إنه في الناحية الأخرى من الطريق. فكرت في أن نتناول الغداء أولاً. إنني أعرف مكاناً جيداً.

ـ يديره صديق آخر لك؟

لانت ملامحه الجامدة قليلاً: «ليس هناك من يملك أصدقاء كثر».

فقالت بهدوء: «لا. أنا واثقة من ذلك».

فكرت في أصدقائها في المدرسة ثم في الجامعة، وكيف فقدت الاتصال بمعظمهم بعد مرض أمها. عليها أن تصحح هذا الوضع فور عودتها إلى

الوطن، بعد أن تلقي بأشباح الماضي خلفها...

ـ أنت تتنهدين. ما الذي يحزنك؟

فأجابت مترددة: «لم أنتبه. لعل هذه الشمس المشرقة والمناظر البديعة ذكرتني بأنها مجرد إجازة... وأن أمامي في الوطن شتاءً طويلاً...».

ـ لكن الشتاء له مسرّاته، أيضاً، يا عزيزتي. إذا كان لديك شخص مناسب يشاركك إياها.

اشتبكت يداها بعنف وألم وهي تفكر في أنه لن يكون معها... يا إلهي العزيز، ما الذي أفكر فيه... ما كانت نيتي قط أن يحدث هذا... هل هذا ما شعرت به أمها طوال السنوات الماضية؟ أخذت تتساءل بيأس عما إذا كان هذا هو سبب عدم عودتها إلى البيت الذي وهبها إياه... لأن قوة مشاعرها نحوه سحقتها وأفزعتها؟

وهكذا، اختارت الأمان في وطنها، مع الصورة الوحيدة التي رسمتها له لتذكّرها بما تركته خلفها.

أما هي، فسيكون لديها صور فوتوغرافية عدة.

رأته يرمقها بنظرة جانبية سريعة، فأسرعت تقول: «تذكرت الآن أنني نسيت أن أحضر معي آلة التصوير. ما أغباني! كان ممكناً أن التقط من قمة الجبل صوراً رائعة».

ـ ربما في مرة أخرى. عندما تثقين بي إلى حد يجعلك تخبرينني بما تفكرين فيه.

ورأت زو مضطربة أن لا جواب لديها أو لا جواب تجرؤ على النطق به.

* * *

كانا وحدهما في خليج أوديسوس. رفعت زو حاجبيها وهي تنظر إلى الشاطىء المهجور، وسألته مازحة: «هل تدبرت أمر خلوّ الشاطىء من

الناس؟».

فابتسم: «الناس يأتون إلى هنا بالمراكب، لكن ما من رحلات أيام الآحاد».

أجفلت وهي تتذكر الرحلة بين بساتين الزيتون والحمضيات والفاكهة والتي تنتهي بطريق تنحدر بشدة.

وأضاف: «كما أنّ الشاطىء ليس للعائلات، لأنه ينحدر تدريجياً وبسرعة ليصل إلى عمق حوالى خمسين قدماً، وإذا لم تكوني سبّاحة ماهرة فستغرقين».

جاء إنذاره هذا متأخراً، كما فكرت زو وهي تكبح نوبة عصبية. لقد هُزمت منذ اللحظة التي رأته فيها، ومنذ وافقت على قضاء النهار معه... ومرافقته إلى هذا المكان الساكن المنعزل جنون. قالت بهدوء: «عليّ إذن أن أحاذر. إذا كان المكان هنا خطراً، فلماذا يقصدونه؟».

فقال وهو يشير إلى صخرة مسطحة تلمع تحت الشمس: «يجيئون لرؤية مكان حدوث الأسطورة».

ـ تحمل لهجتك التشكيك.

فهز كتفيه: «كان على متن سفينة أصدقاء له والريح طيبة، فلماذا يتردد، وإياكا على مقربة منه؟».

نظرت إلى الأرض الوعرة وقالت بصوت مختنق: «لعله قابل حورية بحر أخرى وقعت في غرامه».

ـ الأسطورة لا تتحدث عن ذلك.

فابتلعت ريقها: «ربما بعد تلك النكسات كلها شعر بالخوف من أن يسعد مرة أخرى مع أحبابه، وتملكه الذعر من أن يحدث خطب آخر، فقرر أنه بحاجة إلى مكان يتنفس فيه...».

وسكتت لحظة ثم تابعت: «لو كنت مكانه، لأبحرت على الفور

مبتعداً».

فقال برقة: «لو كان أحب ما في العالم في متناول يدك، فلماذا التراجع؟».

عاد إلى الجيب وأحضر البساط والمظلة وصندوق التبريد تاركاً إياها تحملق في إثره، وقلبها يخفق بمزيج من الإثارة والضيق.

استدارت وأخذت تسير على الشاطىء، شاعرة بسخونة الرمال من خلال حذائها.

كان الجو حاراً للغاية، والبحر ساكناً والأفق يومض بعيداً. لم تتوقع أن تكون وحدها معه هنا. قد لا يكون هذا الشاطىء مقصوداً لكنه مشهور بجماله.

أزاحت عن جبينها خصلة شعر مبللة بالعرق وهي تتذكر الترحيب الذي لقياه من صاحب المطعم، وهو رجل بدين ملتح ذو ضحكة عالية. ربت على كتف أندريس بيشاشة وهو يقودهما إلى مائدتهما، وخصّ زو بنظرة طويلة هي مزيج من الفضول والاستحسان الصريح.

لكن عندما ألقى ملاحظة بلغته، رمقه أندريس بنظرة جامدة جعلته يعود بسرعة إلى الشواء.

بدا واضحاً أنه لا يسمح للآخرين بأن يتخطّوا حداً معيناً، وكان عليها أن تتذكر ذلك.

عندما استدارت عائدة، كانت المظلة مغروسة والبساط مفروشاً، وكان أندريس يخلع ثيابه كاشفاً عن ثوب السباحة.

وقفت وقد جف فمها. ثم رأت أن من الأسهل ألاّ تنظر إليه ما دامت تسعى إلى الانفصال عنه.

مرّ بها راكضاً وألقى بنفسه في البحر، شاقاً المياه بجسده.

في المرة الأخيرة، كان هذا إشارة لها كي تغادر، أما اليوم فإلى أين

تهرب؟ فهما وحيدان ومعزولان.

وذكرت نفسها بأنهما كانا على جبل أديرا ومع ذلك لم يلمسها.

وتسألت عما يخيفها حقاً، أن يضع يده عليها أم ألا يضعها؟

عندما عاد كانت متمددة تحت المظلة وقد دهنت جسمها بالكريم المضاد لحروق الشمس، ورفعت شعرها داخل قبعتها البيضاء، وضعت نظارات الشمس على عينيها فيما ركزت اهتمامها على الكتاب الذي تقرأه. ورغم أن جسدها كله شعر بوجوده، إلاّ أنها بدت هادئة وهذا هو المهم.

حمل منشفته وأخذ يجفف جسمه. كانت تعلم أنه ينظر إليها بعينيه السوداوين: «هل ستسبحين يا عزيزتي؟».

فأجابت متظاهرة بالمرح: «ربما في ما بعد. أرى أن أبقى بعيدة عن المياه العميقة».

ـ ألم تحاولي قط أن تلقي بالحذر في مهب الريح؟

تراقصت الأحرف أمام عينيها غير مفهومة: «نادراً. أحب أن أبقي حياتي بسيطة آمنة».

ـ وأنا أيضاً أفضل أن أتجنب التعقيدات. ولكن أحياناً، لا يمكن تجنبها.

تمدد بجانبها من دون أن يحتك بها، وقال برقة: «أنا واثق من أن هذا كتاب مثير للاهتمام، لكنني أكون شاكراً لو وضعته جانباً لأننا بحاجة إلى أن نتحدث».

ترددت لحظة ثم أطاعت كارهة: «عما تريد أن تتحدث؟».

ـ عنك، يا عزيزتي... وماذا غير ذلك؟

فضحكت: «هذا ليس موضوعاً هاماً».

ـ لكنني لا أوافقك الرأي. أنت تثيرين فضولي، وأريد أن أعلم

بالضبط ما الذي أحضرك إلى تانيا. وهذه المرة أريد الحقيقة.

www.elromancia.com

٧ ـ امرأة غامضة

جلست زو فجأة وحدّقت إلى أندريس. كان يتكىء على مرفقه بارتياح، وقد ضاقت عيناه قليلاً، وبدا بفمه الحازم هادئاً لا يبتسم وهو يبادلها النظر.

ساد الصمت بينهما، فيما استحال همس البحر إلى رعد في أذنيها. بينما شعرت بخدر في جسمها بسبب نظراته القوية. قال: «أنا بانتظار جوابك».

فابتلعت ريقها: «لا... لا أعرف ما الذي تتحدث عنه».

ـ أنت تخيبين أملي.

ـ جئت إلى هنا في إجازة، كما يفعل الكثيرون من الناس.

ـ ليس الكثير منهم. ثم أنهم يأتون أزواجاً أو عائلات... الفتيات الجميلات اللاتي يسافرن وحدهن قليلات. ثمة غموض بشأنك.

فرفعت رأسها: «لا أدري لماذا. حجزت للسفر في آخر لحظة. وكان أصدقائي قد اختاروا أماكن إجازاتهم من قبل، أنا... كنت بحاجة إلى الراحة وقد أخبرتك بالسبب».

ـ نعم. كنت حزينة للغاية، وأنا آسف. لكن من المفروض في هذه الحالة أن تبحثي عن رفاق.

ـ سأفعل ذلك في المرة القادمة.

ـ لكنني أعود فأسأل، لماذا هذه الجزيرة من دون غيرها؟ وما الذي

أحضرك إلى فيللا دانا؟ أنت تفهمين سبب فضولي.

فقالت وهي تبلل شفتيها بطرف لسانها: «لا، لا أفهم. يدهشني ألّا تستجوب كل قادم إلى هنا عن خلفيته ودوافعه. أم أن هذا يضر بسمعة اليونان السياحية؟

ـ معظم الناس يأتون إلى هنا بحثاً عن عطلة هادئة في الشمس، فلا حاجة لاستجوابهم. لكنك منذ البداية، أثرت عجبي. أنت لغز أريد أن أحلّه.

فقالت تواجهه بقوة: «وماذا عنك أنت؟ أنت لست ذلك الرجل البسيط الذي يعمل بالتراب كما تدّعي. فأنت تدور في الأنحاء، زارعاً الخوف في قلوب الناس، أشبه بملك الجزيرة غير المتوّج».

فقال ببطء: «لست ملكاً بالضبط. ربما ولي عهد».

في الصمت الذي تلا، ابتلعت زو ريقها، ثم قالت بهدوء: «فهمت، لا أظن حتى أن اسمك أندريس ستيفانوس... أليس كذلك؟».

ـ بل هو اسمي، لكن لي اسم آخر هو دراغوس.

حاولت أن تبتسم لكي تخفي الألم الذي اعتصر قلبها: «طبعاً. هل أنت شقيق أم ابن أخ أم ابن عم ستيف دراغوس، ملك الشحن البحري؟».

فتوتر فمه: «بل ابنه. وأنا مثلك وحيد أبي».

ـ أتعني أن ثمة صفة تجمعنا؟

وضحكت قبل أن تضيف: «لكنها الصفة الوحيدة. فما من أحد يقفز حين أدخل إلى مكان ما».

وهزت رأسها بعجب: «أرادت شيري أن تحذرني. لقد فهمت الآن. لكن زوجها منعها. على أيّ حال، لا بد للسيد الشاب أن يستمتع بوقته. كم كنت حمقاء!».

وألقت عليه نظرة حارقة. فقال بهدوء: «آه لا. منذ اللحظة التي رأيتك فيها، لم أرك حمقاء. لكن عليّ أن أطلب منك ألاّ تعامليني كأحمق أيضاً».

ـ أظن أنني كلما اختصرت التعامل معك، يا سيد دراغوس، كلما كان ذلك أفضل.

وتناولت قميصها بغضب، فرأت يديها ترتجفان: «أريد أن أعود إلى الفندق الآن، من فضلك».

ـ تانيا جزيرة صغيرة، لكن لا يمكنك أن تسيري مثل هذه المسافة في هذا الجو الحار.

فقالت بصوت يرتجف هياجاً: «أتعني أنك غير مستعد لإعادتي بالسيارة؟».

ـ بل سأعيدك بالتأكيد ولكن لاحقاً. بعد أن نمضي بعض الوقت معاً، من دون خوف من المقاطعة، وبعد أن تجيبي عن أسئلتي. لأن شيئاً ما يخبرني بأنك لم تكوني صادقة تماماً معي.

فقالت وهي تكاد تختنق: «أتجرؤ على هذا القول بعد ادعائك أنك بستاني؟».

ـ لم يكن هناك أي ادّعاء، فأنا أهوى البستنة. كما أنني قلت لك إن لي مهمات أخرى. ولو سألتني لأخبرتك بها.

فقالت بغيظ مكبوت: «نعم، تماماً كما أخبرتني باسمك، حاذفاً منه الجزء المهم».

كان من الوقاحة بحيث ضحك: «حسناً، ربما. كان من الممتع ولو مرة، أن أجلس مع امرأة لا تعرف من أكون، فلا تهتم بي. امرأة لا تريد مني حتى أن أنتبه إليها. لكن اللعبة انتهت الآن».

ثم جلس واقترب منها... حتى احتك بها، فجفّ فمها.

ـ لكن، ما هو الجزء الأهم الذي حذفته أنت، يا عزيزتي؟ لماذا تهتمين بفيللا دانا التي حسب اعترافك ليس بمقدورك شراؤها أو استئجارها؟

ـ رأيت... صورة لها ذات مرة. إنه رسم لفنان أعرفه، ... مشهداً للشرفة الأرضية. أردت أن أعرف إذا كانت الصورة تماثل الحقيقة.

ـ وأنا أريد أن أعرف الشيء نفسه بالنسبة إليك.

فعضت شفتها: «هذا... ليس عدلاً».

فقال بنبرة هازئة: «ليس عدلاً؟ وهل تتوقعين مني حقاً أن أصدق أن صورة أحضرتك إلى هنا؟ لا أظن أن أمراً كهذا يحدث».

ـ ألا تظن أن فيللا دانا تستحق الرسم؟

ـ كل جزيرة في اليونان لديها حصتها من الفنانين. لكنهم يحاولون عادة أن يرسموا... البحر. ومعظمهم يختارون المعابد الأثرية، وليس بيتاً عصرياً.

ـ لعل هذا هو ما حرّك فضولي.

ـ أحب أن أعرف كيف وصل ذلك الفنان إلى المنزل... سأخبر أبي أن أمتنا بحاجة إلى مراجعة.

ـ ولماذا تزعجه بذلك؟ حدث ذلك منذ زمن طويل، ولن يحدث مرة أخرى. حسناً، أنا لن أعود إلى هناك... فالمنزل ليس لطبقتي.

ليس المنزل فقط... كما أخذت تفكر...

كان الألم في داخلها أشبه بقبضة حديدية، وأخذت نفساً عميقاً: «لكنني كرهت أن أراه خالياً، ولهذا سمحت لنفسي بأن أحلم لفترة».

وسكتت لحظة ثم عادت تقول بصوت فاتر: «والآن، أنا آسفة للذهابي إلى ذاك المكان. هل لك إذن أن تنهي هذا الاستجواب؟».

ـ ولكن إذا لم تسمحي لي بطرح أسئلة، فكيف سأعرف كل شيء

عنك، يا عزيزتي؟

كان يتكلم برقة وبلهجة ضاحكة. هذا التغيّر المفاجىء في لهجته جعلها تتخلى عن حذرها فيتوهج وجهها احراراً. فالمواجهة لم تعد تتعلق بالمنزل، بل كانت ببساطة مواجهة بين رجل وامرأة وحدهما.

قالت متلعثمة قليلاً: «ماذا تريد أن تعلم؟».

- كل شيء.

اشتبكت عيناه بعينيها، فرأت البسمة في أعماق عينيه السوداوين الملتهبتين. بدا وكأنه ازداد اقتراباً منها ما جعلها تتصور أنها إذا أدارت رأسها ستحتك به.

- يا له من مطلب في عصر يوم مشمس على الشاطىء!

- أنا سريع الفهم كما أنني أوليك انتباهي كله.

هل من المفترض أن يسرها هذا؟ نظرت بعيداً وأخذت قبضة من الرمال تعبث بها.

قالت بابتسامة باهتة: «في الواقع، كانت طفولتي عادية سعيدة، وكنت تلميذة مجتهدة، وقد حصلت على شهادة جيدة. هذا يبدو مملاً حقاً».

- على العكس. الطفولة السعيدة نعمة من الله.

كان في صوته نبرة غريبة مرة، فنظرت إليه بسرعة ولاحظت توتر فمه، فقالت: «لا أظن أن هذا ما كان ينقصك؟».

- ليس على الصعيد المادي بالطبع. ولكن... النواحي الأخرى... لم أكن أرى والديّ إلا قليلاً. كان أبي مشغولاً على الدوام... لا يستقر في المكان نفسه سوى أيام معدودة. ونادراً ما كانت أمي بصحة جيدة بحيث تمكث معي، فقد أمضت معظم حياتها في المستشفيات وعيادات الأطباء.

- آسفة. مما كانت تعاني؟

- لا أعتقد أنها كانت قوية يوماً ما. لقد وجدت الحمل محنة بالغة، وولادتي كابوساً. أُجريت لها فحوصات لا نهاية لها، من دون جدوى. عندما أفكر في ذلك، أميل الى الاعتقاد بأنه كان لديها نفوراً أو حساسية من الزواج... خصوصاً الزواج من رجل قوي ومتطلّب كأبي. رجل يريد امرأة تقف بجانبه، وتعطيه دزينة من الأطفال.

وتنهد: «أتساءل أحياناً، أيّ منهما كان شقياً أكثر».

وألقى عليها نظرة جافة: «أترين، يا عزيزتي، لدي كل ما أطلبه، ما عدا ما أريده حقاً».

حدقت إليه زو فلم تر الرجل الهادىء الذي فرض نفسه على حياتها بمثل تلك الثقة بل الصبي الذي عاش في فراغ عاطفي ووحدة مربكة.

سمعت نفسها تنطق باسمه وهي تمدّ يدها تلمس كتفه. شعرت بعضلاته القوية تجفل تحت لمستها. ثم أمسك أصابعها ووضعها على خده الخشن، قبل أن يلمسها بشفتيه بسرعة.

أجفلت وكادت مشاعرها تسحقها، نظرت إلى أصابعه السمراء الطويلة التي تمسك بأصابعها، وتصورت ذراعيه تحتضنانها بقوة. ومن دون أن تدرك ما تفعل، دنت منه أكثر ووضعت يديها حول عنقه.

تقابلت عيناها مع عينيه بصمت. كانت متلهفة إلى أن تجد نفسها أخيراً بين ذراعيه.

سمعته يشهق بشدة وهو ينظر إليها، ورأت اللهب السريع في عينيه السوداوين...

وفي اللحظة التالية، تحوّل عنها فجأة مبتعداً... فذهلت غير مصدقة...

- ماذا حدث؟ ألا... ألا تريدني؟

www.elromancia.com

كان صوتها غريباً خافتاً أجش وهي تتكلم متلعثمة. فقال من فوق كتفه: «أنت الإغراء بذاته، لكن المكان والوقت غير مناسبين».

حدّقت بذهول إلى ظهره العاري، فيما تصاعد غضبها لما شعرت به من مذلة لرفضه لها.

بعدئذ، نهضت واختطفت حقيبتها ومنشفتها ثم قالت: «ما دمنا ملاصقين لبعضنا البعض، كل ما أستطيع فعله هو أن أبتعد عنك».

وأخذت تسير على الشاطىء، شامخة الرأس متوجهة إلى صخرة أوديسوس. خدشت الصخرة قدميها عندما مدّتهما عليها. لكنها لم تظهر ضيقها كيلا يشمت أندريس بها، وكانت واثقة من أنه ينظر إليها.

حسناً، فلتتركه ينظر، ما دام لا يعلم أنها في الواقع تكاد تموت خجلاً وارتباكاً.

وهمست بصوت خافت: «تباً لك، يا أندريس دراغوس. لقد دفعتني إلى هذا الوضع، وعليّ الآن أن أواجهه».

تملكها الغضب عندما اغرورقت عيناها بالدموع. لن تدعه يراها تبكي مهما كانت الظروف، ولن تدعه يعرف أنّ لديه القدرة على أن يجعلها تبكي وتئن من الألم.

لم يكن أمامها إلا أن تسبح قليلاً، فتبرد وتهدأ أعصابها، كما أن قطرات المياه يمكن أن تكون تمويهاً لأي دموع قد تسيل من عينيها.

سارت إلى حافة الصخرة، ووقفت رابطة الجأش ثم قفزت في الماء.

سمعت صوت أندريس يقول شيئاً ما، ولكن إذا كان هذا اعتذاراً، فقد فات الأوان كما حدثت نفسها وهي تشهق من برودة الماء على جسدها الملتهب، ومن الظلمة اللامتناهية التي تنتظرها. يبدو أن أندريس لم يبالغ، فالماء كان أعمق مما اعتادته.

استدارت عائدة إلى أشعة الشمس فوقها حامدة الله لأنها وصلت

أخيراً إلى سطح الماء وهي تشهق.

سبحت بسرعة متجهة إلى الخليج الصغير علها تعود إلى تلك الصخرة لتستلقي تحت أشعة الشمس.

لكنها سرعان ما أدركت أن عودتها إلى الصخرة أو حتى إلى الشاطىء الداخلي أمر عسير. إذ راح التيار الهادىء الغادر يجذبها أعمق فأعمق، ويمنعها من التقدم رغم كفاحها.

وبدأت تتعب، ولكنها لم تجد فائدة من الانقلاب على ظهرها لكي تطفو لأن هذا يزيد من مشاكلها.

أستطاعت أن ترى صخرة أوديسوس تشع في أشعة الشمس ترشدها، لكنها راحت تزداد بعداً رغم جهودها للوصول إليها. بدا وكأن التيار يجذبها بقوة أكبر... أم أنها هي التي تضعف؟

وفجأة شعرت بالخوف بعد ان ابتلعت بعض مياه البحر.

لم تدرك أنها لم تعد وحدها حتى أمسكتها يدان قويتان وسمعت صوت أندريس يقول: «أنا ممسك بك الآن، استرخي ولا تكافحي، سأخرجك».

أرادت أن تقول بكبرياء إنها تعلم أن عليها ألّا تقاوم عندما يحاول أحد إنقاذ حياتها. لكن وبدلاً من ذلك دخلت المياه إلى فمها فاختنقت.

وأخيراً قال لها لاهثاً: «نحن عند الصخرة. تمسكي بها بكلتي يديك، سأسحبك إلى الأعلى».

تمسكت وهي تشهق بينما رفع نفسه برشاقة من الماء، ثم وضع يديه تحت إبطيها وجرها إلى جانبه.

هل عليها أن تنفجر باكية أولاً أم تتقيأ؟ وقالت بصوت لم تكد تعرفه: «لا أدري كيف أشكرك».

ـ تشكرينني؟

وأضاف بصوت مبحوح وعيناه تشعان غضباً: «تشكريني يا غبية؟ كنت على وشك الغرق. ألم تسمعيني أصرخ بك؟ أحذرك من أن تقفزي من الصخرة لأنها خطرة؟».

- لم... لم أسمع ما قلته.

واصطكت أسنانها فجأة عندما أدركت ما كاد يحدث لها. تمتم بصوت منخفض سرّها أنها لم تفهمه، ثم لفّها من دون مقدّمات بالمنشفة.

لقد تساءلت عما يمكن أن تكون عليه لمسات يديه، وها قد عرفت الآن. لكن يديه لم تكونا رقيقتين أو رفيقتين أو تشبهان يديّ الحبيب ولو من بعيد، بل قويتين خشنتين. لكنها عادت تشعر بالحياة، وأنها ليست حطاماً.

وعندما انتهى، تناول كيسها وعلّقه في كتفه، ثم حمل زو والمنشفة بين ذراعيه وعاد بها إلى حيث المظلة فأوقفها على قدميها وناولها زجاجة ماء: «اشربي».

سرتها برودة الماء فسكبت بعضه في يدها وقذفته على وجهها وعينيها.

التفتت تواجهه، وقالت بصوت خافت: «آسفة... لقد ثار غضبي فعرّضت كلينا للخطر».

- من الآن فصاعداً، ستسبحين قرب شاطىء الفيللا. فالمياه أقل عمقاً، كما سأكون حاضراً.

هزت رأسها بضعف: «ظننت أنني آخر شخص تريده هناك».

فقال برقة: «لا يا عزيزتي، أنت تعلمين أن هذا غير صحيح».

- لم أعد أعلم شيئاً.

كانت مصممة على ألاّ تبكي أمامه، لكن دموعها انهمرت فجأة على خديها من دون أن تملك القوة على منعها. فأحاطها بذراعيه: «لا. لا حاجة بك لذلك. إننا آمنان».

وأخذ يلامس شعرها المبلل ويتمتم بلغته، بينما مالت هي عليه مريحة خدها على صدره، متشممة رائحة البحر المنعشة في جلده، مصغية إلى ضربات قلبه القوية، وهي تحاول أن تسيطر على شهقاتها الصغيرة المرتجفة.

شعرت بنوع غريب من الإنهاك يتملكها، وراحت ساقاها ترتجفان إلى حدّ كان ممكناً معه أن تنزلق إلى الرمال عند قدمي أندريس، لو لم يكن يمسك بها.

حدّثت نفسها بأنها صدمة... صدمة متأخرة وهذا كل ما في الأمر.

- أنا لا أفهم.

ولم تدرك أنها تكلمت بصوت مرتفع إلا بعد أن أجابها: «ما الذي لا تفهمينه يا عزيزتي؟».

فأجابت وهي تدير وجهها قليلاً: «ما نفعله هنا. حتى سبب وجودك معي بينما أنت لا... يبدو أنك لا تريدني...».

أمسك بكتفيها وأبعدها عنه وأخذ يحدّق إلى عينيها بعنف غريب، ثم سألها برقة: «هل هذا حقاً ما تظنينه؟ هل هذا ما تتوقعينه مني؟ ساعات من المرح تتهامسين عنها، مع رفيقاتك في إنكلترا أثناء شتاء بلادك الطويل البارد؟».

فارتجفت شفتاها: «لا. لا... في الواقع، لا أدري ما أتوقعه... أو ما حدث لي... وهذا يخيفني».

وتراجعت خطوة إلى الوراء محاولة أن تبتعد عنه، أن تستقل بنفسها جسداً ومشاعر. لكنها تعلم أن الوقت فات على ذلك، وأنها ضاعت. فقالت بصوت متهدج: «رباه، أنا لم... لم أحضر إلى هنا... لهذه الغاية».

فضحك بخشونة: «وهل تظنين أنني حضرت لهذا السبب؟ أنت

خطئة. كانت حياتي منظمة. وأنت صدقيني... ما كنت جزءاً منها».

فقالت بصوت يقارب من الهمس: «دعني إذن أذهب... يا أندريس. الآن».

- وهل بإمكانك ذلك؟ أن تذهبي مشياً؟

التوت شفتاها بشبه ابتسامة متألمة: «سوف... أحاول».

- لا.. أنت أحكم من ذلك. ولا تظني أبداً أنني غير راغب فيك لأنني أريدك أكثر مما تظنين. لكن هذا مبكر للغاية ولا بد أنك تدركين ذلك أنت أيضاً. إننا بحاجة إلى مزيد من الوقت، لنأتلف مع مشاعرنا ولنعرف بعضنا بعضاً جيداً.

- لكن ليس لدينا هذا المقدار من الوقت. فأنا هنا في إجازة وسأعود إلى إنكلترا، إلى شقتي وعملي. ومهما حاولت تجميل الوضع، فهو لا يتعدى كونه علاقة مؤقتة.

أحاط وجهها بيديه وقال: «أنا بحاجة إلى قلبك وروحك وعقلك الحلو العنيد، الذي لا يسمح لك بأن تثقي بي حتى في هذه اللحظة. ولا أريد أقل من ذلك».

وابتسم آسفاً مضيفاً: «ولهذا، لا أثق بنفسي إذا ما لمستك وأنا مصمم على التصرف بشكل حسن».

هذه أفضل لحظة لتكون صادقة معه، فتخبره بسبب مجيئها إلى هنا وزيارتها لفيللا دانا. لكنها خشيت أن ترى الرقة والحنان يزولان من عينيه، والغضب يقتني فمه...

خافت أن يعتقد أن إقرارها بمشاعرها هو بدافع مصلحتها بعد أن عرفت هويته الحقيقية.

فكرت في أنها لن تستطيع أن تطيق ذلك... لا تستطيع أن تجازف... لم يحن الوقت بعد وقد لا يحين أبداً... فقد أدركت فجأة،

بغفلة، أن الفيللا لم تعد لها أي أهمية أو لأي شيء حدث في الماضي. كل ما يهمها الآن هو أندريس ومستقبلهما معاً، وهي لا تريد للغموض القديم أن يعكّره. ولذا، يكفي أن تمزق المستندات وتتحرر. قال أندريس برقة: «أين أنت؟ لقد تركتني فجأة».

- أظنني ما زلت ذاهلة قليلاً.

واشتبكت أعينهما. كانت عيناها صافيتين وهي تشعر وكأن حملاً أزيح عن ظهرها: «لكنني لم أذهب إلى أي مكان. ما زلت معك هنا. وهو المكان الوحيد الذي أريد أن أكون فيه».

وأضافت باليونانية بابتسامة مرتجفة: «(يا عزيزي أندريس) أترى؟ إنني أتعلم اليونانية».

فضمها إليه: «وأنا متلهف لأن أكون معلمك».

فهمست: «هل علينا... أن ننتظر؟».

- نعم، ونعم مرة أخرى.

وأبعدها عنه وفمه يلتوي بأسف ثم أردف: «ولهذا، علينا أن نتابع جولتنا إلى حيث نجد مكاناً فيه أناس آخرين، يا عزيزتي، حيث لا يتطلب تحكمي في نفسي مثل هذا الجهد».

أصبحت ابتسامتها ماكرة: «أظن ذلك يتعلق بالمكان، فأين هو المكان الأقل إغراء؟».

- الكهوف الفضية شعبية بما يكفي، وهي مليئة بالسياح. سنذهب إليها هناك.

- نعم، لعل هذا أفضل.

- آه، يا جميلتي. لا تنظري إليّ بهذا الشكل.

أخذت ترتجف وهو يعود فيحتضنها. همس باسمها وهو ينظر في أعماق عينيها، ثم ضمها الى صدره برقة بالغة، كابحاً بقوة حديدية أي

مشاعر محمومة.

تركها وأنفاسه تتمزق وعيناه السوداوان تتوهجان. وقال بصوت أبح: «علينا أن نذهب الآن حالاً، وإلا فلست مسؤولاً عن النتائج».

واستدار مبتعداً وتناول ملابسه، وتنهدت هي بألم.

* * *

كان مدخل الكهوف ضيقاً، والأضواء على الجدران تشير إلى الطريق. وفي القاع، رأت رصيفاً خشبياً صغيراً حيث ترسو زوارق.

بدا لمعان المياه الفضي كعالم آخر موحش... فسرّت زو جداً لأنها جزء من صف المتفرجين وليس وحدها.

كانت لا تزال ترتجف في داخلها لذكرى عناق أندريس، وجسدها كله ينتفض لقوة المشاعر التي أيقظها فيها.

حاولت أن تنبذ هذه الأفكار وتركز على كلام الدليلة عن تاريخ هذه الكهوف وكيفية اكتشافها، لكن من دون جدوى والرجل الذي تريده بكل هذه اللهفة يقف قربها.

عندما جاء دورهما جلست بجانبه في مقدمة المركب لا تعي شيئاً سوى ذراعه التي أمسكت بها بخفة، بينما قائد الزورق يسرع بهما إلى البحيرة.

تمتم في أذنها بهدوء: «أتعرفين الأسطورة؟».

ـ نعم، قرأت عنها. إنها تخيفني قليلاً.

فابتسم: «ألا تريدين أن تجربي؟ أن تنادي اسمي لتري إن كنت مخلصاً لك؟».

ـ هذا ليس ضرورياً فأنا لا أؤمن بالخرافات.

وانحنت ومدّت أصابعها إلى المياه لكنها سرعان ما سحبتها: «يا إلهي إنها كالثلج».

لم يثبّط جوابها أندريس فقال: «سأناديك أنا إذن».

فقالت بسرعة، وهي تشعر بضيق غامض: «لا أرجوك أن لا تفعل هذا، يا أندريس».

ـ أتخافين من اختبار قوة ثقتك؟

ـ إنها مجرد قصة حمقاء، كما أنني سأشعر بأنني حمقاء بين كل هؤلاء الناس.

وضحكت، فقال: «سنعود إذن في المساء والكهف خالٍ، وسيباركنا الكهف. بصفتي رجل تانيا عليّ أن أتبع التقاليد قبل أن أتزوج».

أجفلت زو بعنف فمال المركب بقوة. وقالت لاهثة: «هل تتكلم عن الزواج؟».

فأجاب بصبر: «يا حبيبتي. هل أصغيت إلى كل ما قلته لك؟ أظنني أوضحت لك أنني أريدك أن تشاركيني حياتي وليس فقط سريري».

توهج وجهها بذعر، وهمست: «أندريس، سيسمعك قائد المركب».

ـ إنه لا يفهم الإنكليزية، كما أنه أحكم من أن يردد ما يسمعه. لماذا ما زلت ترتابين بي يا حبيبتي؟

فقالت ببطء: «كل هذا يحدث بسرعة. كما أن أمثالي لا يتزوجن من هم في مركزك. لا بد أنك تعلم ذلك».

فلوى شفتيه: «ربما تظنين نفسك أفضل من أن تتزوجي مثلي؟ ربما أنت على حق. إني أعترف بذلك».

ـ أرجوك، كن جاداً. أنا واثقة من أن الأمر لن يكون سهلاً... من المتوقع منك أن تتزوج امرأة مناسبة لك. أن... أن تتزوج فتاة من السلالة الحاكمة.

فهز كتفيه:

ـ لقد قالوا لي ذلك لكنني لطالما أصريت على أن أختار بنفسي. كنت أنتظرك رغم أنني لم أكن أعرف هذا.

وابتسم لها. فاحمر وجهها وبان الخجل عليها: «لا أصدق كل هذا. لكنني أحب أن أسمعك تقوله».

فقال مؤنباً: «أما زلت تشكين بي؟ ربما علي أن أسأل الصدى في الكهف ليحكم عليّ».

فقالت بعنف وهي تراه يلتفت نحو زاوية الكهف: «لا. أرجوك يا حبيبي، ليس الآن. سنأتي في وقت آخر».

فرفع حاجبيه: «إنها مجرد أسطورة يا حبيبتي، فلماذا تزعجك إلى هذا الحد؟».

حاولت أن تضحك: «فلنفرض أننا نادينا بعضنا البعض فلم يجبنا سوى الصمت... لا... لا أريد أن أجرب القدر. كما أن المكان هنا بارد».

وارتجفت قليلاً.

ـ أتريدين الرحيل؟

فأومأت بسرعة، أمضيا رحلة العودة إلى ليفاسي بهدوء. كان أندريس مقطباً قليلاً، وأصابعه تربت على عجلة القيادة بشيء من عدم الصبر. ونظرت إليه زو خلسة متسائلة عما تراه يفكر. أتراه شعر بالندم لأنه تكلم بمثل ذلك الطيش؟ وارتجفت في داخلها.

عندما توقفا أمام الفندق سألته: «هل سأراك الليلة؟».

ـ لا يا حبيبتي. لدي عمل عليّ إنجازه، وأشخاص علي أن أتحدث إليهم، وأبي من بينهم. لكنني سأراك عند الصباح. سنمضي بعض الوقت في فيللا دانا فنتحدث ونخطط لبعض الأمور. متى آتي لآخذك؟

ـ سأذهب بنفسي إلى هناك. لا أريد أن أثير مزيداً من الأقاويل من دون ضرورة.

ـ ما أسرع ما سيعرف العالم كله.

وأخذ يدها يقبلها وهو يضيف: «إلى اللقاء، ليلة سعيدة، واحلمي بي».

عندما ابتعدت الجيب، وقفت زو على درجات الفندق رافعة يدها تلوح له بالتحية، ثم توقفت وهي تشعر لفراقه بوحشة بالغة. شعرت وقلبها يخفق وكأن كل ما بينهما انتهى، وأن ذهابه هو نهاية سعادتهما، وأنها لن تراه مرة أخرى.

صرخت باسمه، تريده أن يعود. خرج صوتها عالياً خائفاً، لكن الجيب توارى عن الأنظار.

ثم، ساد السكون.

٨ ـ دوامة من ظلام

حمدت زو الله على أن ستافروس وشيرا لم يكونا في البهو ليشاهدا تصرفها الأحمق. وتساءلت عابسة عن غبائها وهي تنادي رجلاً من المستحيل أن يسمعها. لا حاجة للشعور بهذا التشاؤم. إنها سخيفة جداً.

وتوجّهت إلى الفناء لتجلس إلى إحدى الطاولات.

لم يكن عجيباً أن يتملكها الاضطراب وهي ترى حياتها تتحول نحو المجهول. وهذا هو سبب رغبتها في أن يعود أندريس. أرادت أن تستمد الاطمئنان من وجوده بقربها... حنان صوته وهو يناديها بصفات التحبب بلغته. أرادت أن تريح رأسها على كتفه القوية، أن تشبك أصابعه الطويلة بأصابعها، وأن تسمع قلبه يدق بعنف حين يعانقها.

لكن غريزتها حذرتها من أن تتعلق به إلى هذا الحد، أو أن تعتمد عليه أكثر مما ينبغي. فلديه حياة لم تختبرها، ومسؤوليات لا تعرفها بعد.

لعل هذا هو أحد الأمور التي أراد أن يناقشها معها غداً، أن يطلعها بصراحة على ما يعنيه الزواج منها.

تعلم أن الأمر لن يكون سهلاً، لكنها ستواجه الوضع، وستقف بجانبه ولن تجره إلى الخلف.

وقرّرت بعزيمة فولاذية أن تخبره بكل ما تخفيه. لن تكتفي أن تمزق المستندات معتقدة أن الأمر انتهى، لأن هذا لن يدفن الماضي. إذا لم تكن صادقة تماماً معه، فإن إهداء الفيللا لأمها سيبقى دوماً في ذهنها معلقاً فوق حياتهما كالظل البعيد.

لكنها لا تريد ظلالاً، ولا أسراراً.

ـ أتريدين شيئاً؟

نظرت مجفلة عندما قاطع هذا الصوت الخشن تأملاتها ودهشت للغاية إذ وجدت العم ستافروس واقفاً بجانب الطاولة.

ـ بعض عصير الليمون من فضلك.

شخر بصوته وابتعد وتركها تتساءل متعجبة عما فعلت لتثير استياءه منها.

حسناً، سنحت لها الفرصة الآن لتعلم.

قالت له بأجمل ابتساماتها: «لقد رأيتك من قبل، أليس كذلك؟ في الساحة ذلك اليوم... وهذا الصباح».

هز رأسه ايجاباً، ثم استدار ليبتعد لكنها عاجلته قائلة: «عفواً ولكن هل من خطب ما»؟

عاد فاستدار إليها وقد قطّب غاضباً: «ما كان لك أن تأتي إلى هنا ومن الأفضل أن ترحلي حالاً، قبل أن تزداد المشاكل».

لو صفعها لما كانت صدمتها أعنف.

ـ أنا... أنا لا أفهم عما تتحدث.

ـ أتظنينني لا أتذكر... أنا ستافروس؟ ظننت أنني لن أراها فيك. ابنة جينا الصغيرة؟

فقالت بحذر بالغ: «إذا كنت تتحدث عن أمي، فأنا أعلم أنها أقامت هنا ذات مرة».

فقال بخشونة: «نعم. هي وتلك الأخرى أختها».

فطرفت بعينيها: «أتقول إن خالتي، أختها ميغان، جاءت معها إلى هنا... إلى تانيا؟ لم أكن أعلم».

- ثمة الكثير مما لا تعلمينه. ارحلي قبل أن يحدث المزيد من الضرر... من الحزن.

وانحنى نحوها والتهديد على وجهه: «أندريس دراغوس ليس لك».

شهقت واحمر وجهها: «أظن أنَّ هذا شأني... وشأنه. لا يمكنك أن تقول ذلك.»

- لكنني قلته. والآن، انتهى الموضوع... انتهى.

وللحظة، خيّل إلى زو أنها رأت ومضة عطف في تينك العينين الضيقتين. واستدار مبتعداً، تاركاً زو تنظر في أثره، وقد منعها الذهول من أن تتحداه.

كان حلقها جافاً يحترق، ولكن عندما حاولت أن ترفع كأس العصير ارتجفت يدها بحيث انسكب بعض الشراب على الطاولة.

إستندت إلى الخلف في كرسيها وحاولت أن تسيطر على مشاعرها بينما قلبها يخفق بشدة.

لم تكن مأخوذة بسعادتها غير المتوقعة إلى حد لم تدرك معه أن علاقتها بأندريس قد لا تلاقي ترحيباً عاماً. سيكون هناك من يراها غير جديرة بأن يتزوجها.

وحدثها عقلها بأنها ستواجه معارضة عنيفة من أسرة أندريس وخصوصاً من أبيه. لكنها لم تتوقع مثل هذا الهجوم المباشر من شخص ليس فرداً في أسرة دراغوس. حتى أنها غير واثقة مما إذا كان ينبهها... أم يهددها.

فكرت في ... أندريس. عليها أن تراه، أن تخبره بما حدث... أرادته أن يواسيها، أن يطمئنها. ولكن خطر لها فجأة وبشكل مروّع أنها لا تعرف كيف تجده. كانت تفترض أنه يعيش في منزل دراغوس، ولكن حتى هذا لم يكن مؤكداً. إنه الرجل الذي يريد أن يتزوجها،

ومع ذلك ليس لديها عنوانه أو رقم هاتفه.

شعرت بنفس الضيق الذي تملكها حين أنزلها وغادر. الاعتقاد الموحش نفسه بأنه رحل من حياتها وأن ما من شيء سيعود كما كان. لكنها عادت تذكّر نفسها بأن هذه سخافة، لأنهما سيلتقيان في الغد في فيللا دانا. عندئذ يمكنها أن تخبره بكل شيء، أن تخبره بكل بكل ما كان يضغط على نفسها من شكوك ومخاوف.

لقد طلب منها أن تثق به وعليها أن تفعل ذلك. عليها أن تثق به لتناضل من أجلها، لأجل مستقبلهما معاً.

صعدت إلى غرفتها فاغتسلت وارتدت ثوباً أزرق، محاولة أن تمحو ما ارتسم على ملامحها من قلق وتوتر، لكنها لم تنجح.

خرجت إلى الشرفة، فإذا بها تسمع هديراً فوق رأسها. نظرت إلى الأعلى وإذا بها طائرة هليكوبتر تدور حول الميناء قبل أن تتجه إلى البحر.

وضعت يديها على أذنيها بسبب الصوت الهادر المزعج بشكل غير عادي في هذه الجزيرة الصغيرة.

عندما عادت إلى الفناء، كان معظم الزبائن يتناولون الطعام. نظرت حولها فأدركت بخيبة أمل كم كانت ترجو أن تجد أندريس في انتظارها.

لكن الخبر الجيد الوحيد هو أن العم ستافروس لم يكن موجوداً أيضاً.

جاءت شيري بقائمة الطعام وسلة تحتوي على خبز وأدوات المائدة، فابتسمت زو وهي تحييها باليونانية. لكن المرأة أومأت ولم تبادلها النظرات: «لحم العجل المطبوخ جيد الليلة».

- سأطلبه إذن من فضلك.

أبقت زو لهجتها عادية لكن قلبها كان يخفق بعنف.

عندما عادت شيري بالطعام، وضعت زو يدها على ذراعها وقالت بصوت خافت: «شيري، ما الذي يحدث؟».

- أخبريني أنت. فأنت التي تخرج مع وارث ملايين دراغوس.

سوّت شيري وضعها بحيث أدارت ظهرها إلى بقية الجالسين في الفناء. كان صوتها قلقاً منخفضاً:

- بالله عليك، يا زو. هل لديك فكرة عما تورطين نفسك فيه؟

فأجابتها زو ببساطة: «لقد وقعت في الحب».

- عليك إذن أن تعدلي عن ذلك وبأسرع ما يمكنك. دعيني أتصل بشركتك في كيفالونيا، وارحلي قبل أن يتحطم قلبك.

- هل أنت واثقة من أن هذا سيحدث؟ ربما أندريس يحبني هو أيضاً؟ ماذا سيحدث؟

- لن يُسمح له بذلك. يا إلهي يا زو، ليس لديك فكرة عن نفوذ هؤلاء الناس... رجل مثل ستيف دراغوس. صدقيني، أنت لا تريدين أن تعلمي. اعتبري كل شيء من تجارب الحياة واخرجي قبل أن تستفحل الأمور.

وشحب وجهها فجأة: «كان عم ستافروس هنا وراح يصيح به لأنه وافق على إقامتك هنا، طالباً منه أن يطردك، قائلاً إن الإنكليزيات لا يسببن سوى الإزعاج، وأنه مجنون لزواجه من إنكليزية. مع أنه كان بالغ اللطف معي من قبل».

- آسفة يا شيري. قال لي هذا منذ فترة. لكنني سأعلم ما الذي يجري، وأدع أندريس يحلّ الأمور.

- هذا إذا استطاع.

وابتسمت ابتسامة سريعة متوترة وذهبت.

تناولت زو عشاءها من دون شهية. حدثتها غريزتها بألّا تنتظر حتى

اليوم التالي وأن تبحث عن أندريس الليلة، وتدعه يعالج المشاكل المتراكمة هذه قبل أن تهب العاصفة التي تهددهما وتكتسحهما.

ومن ناحية أخرى، لم تشأ أن تدع الذعر يتملكها من دون ضرورة.

تمنت لو تكلمت أكثر مع شيري لكنها رأت أن المرأة تحاول أن تبقى بعيدة عن الموضوع، ولا تستطيع زو أن تلومها. وقررت أن تنام باكراً.

خلعت ثيابها ولبست قميص نومها، ثم استلقت في سريرها تحاول أن تقرأ، لكنها لم تستطع التركيز فقد شعرت بجو الغرفة خانقاً، كما لم تستطع أن تتخلص من البرودة التي شعرت بها في أعماقها.

تملكها ارتباك لتغيّر كل شيء في حياتها. منذ ساعتين فقط كانت أسعد الناس في العالم، وها هي تجد نفسها الآن من دون أن تفهم ما يجري لها.

لا أحد هنا يتمنى لها السعادة، أو يظن أن علاقتها بأندريس سيكتب لها النجاح. وكاد يخنقها الحزن.

عليها أن تعرف السبب. هل هو الاختلاف في المركز الاجتماعي فقط؟... لأنه ملياردير وهي ليست سوى معلمة؟ أم أنه اختلاف الجنسية؟

ما من شيء فكرت فيه كان يكفي لإثارة رد الفعل القوي هذا الذي واجهته.

أطفأت مصباحها، ثم استلقت تحدق إلى الظلام. وهمست بصمت... حبيبي، حبيبي... فكر فيّ الآن، أينما كنت... كم أنا بحاجة إليك... وما أشد خوفي!

* * *

كان هذا يوماً حاراً آخر محرقاً، وكانت زو مسرورة وهي تلجأ إلى ظلال كروم الزيتون.

ندمت للحظة لعدم إحضارها ثوب السباحة والمنشفة معها. لكنها هنا لتتحدث لا لتسبح وتتشمس. أمامها الكثير من الوقت تمضيه في الشمس، لاحقاً... عندما يخرج كل شيء إلى العلن.

لقد أحضرت مستندات الهدية معها لكي تثبت هويتها. وربما سيغضب لأنها لم تتحدث عن ذلك من قبل.

إذا كان يحبني حقاً، فسيسامحني، وإذا لم يكن يحبني... حسناً، لن تفكر في هذا الاحتمال... وارتجفت.

قال أندريس إنه سيسبقها إلى الفيللا وينتظرها، فأسرعت بلهفة إلى درجات الشرفة الأرضية لكنها كانت خالية كحال الشاطىء.

لا بد أنه في المنزل. لكن، عندما حاولت أن تفتح الباب الرئيسي وجدته مقفلاً. كانت المنافذ كلها مقفلة وكأنها هي أيضاً أصبحت ضدها... لكنها عادت تعنّف نفسها لتشاؤمها هذا.

لا تستطع حتى أن تقول إنه تأخر لأنهما لم يعيّنا وقتاً للقاء. لعله مشغول، فهي لا تعلم شيئاً عن عمله.

حدثت نفسها بأنه سيكون هنا، وأن عليها أن تصبر... وتنتظر قليلاً.

وجدت بقعة من الظل، فجلست ممددة ساقيها أمامها، وأخذت تعبث بقبعتها.

أخرجت المستندات من حقيبتها وأخذت تراجعها. كانت قد أحضرت نسخاً من شهادة ميلادها ووصية أمها بغرض الإثبات. وعندما تخبره بالسبب الحقيقي لحضورها إلى تانيا، ستمزق هذه الأوراق أمامه، متنازلة عن كل حق لها في البيت.

نظرت إلى ساعتها وعبست. لا تستطيع أن تجلس فقط، مرهفة أذنيها لوقع خطواته، وإلا ستمر كل دقيقة وكأنها ساعة.

ولكن، عندما نظرت مرة أخرى إلى ساعتها، أجفلت وهي تدرك أنّ ساعة مرت حتى الآن. وما أسرع ما سيمر الصباح وتدخل فترة العصر. وقفت وتمطّت ثم سارت إلى حافة الشرفة وأخذت تنظر إلى الشاطىء إذ قد يحضر من طريق آخر. لكنها ما زالت وحدها.

بدأ الغضب يتملكها. بالنسبة إلى رجل عاشق، هذه عجرفة بالغة منه. حسناً، ستنتظر عشر دقائق أخرى.

وسرعان ما تبعت العشر دقائق عشر أخرى، حتى مرت ساعة كاملة من دون أن يبدو له أثر.

إذا خافت الليلة الماضية فهي الآن مصعوقة وعلى وشك البكاء.

أين هو، وماذا حدث له؟ واختطفت حقيبتها ثم عادت من حيث أتت وهي تكافح تعاستها وشكوكها مع كل خطوة.

عندما وصلت إلى ردهة الاستقبال في الفندق، كان ستافروس عند التليفون فوقفت تنتظره أن ينهي اتصاله، فألقى بالسماعة وهو ينظر إليها بحذر: «أية خدمة يا آنسة؟».

فقالت بثبات: «هل يمكنك أن تخبرني، كيف أصل إلى منزل السيد دراغوس؟ أنا بحاجة إلى رؤية أندريس بشكل مستعجل».

ساد صمت قال بعده: «أندريس في أثينا. جاءت طائرة الهليكوبتر لنقله فرحل مساء أمس».

ـ رحل؟ من دون أن يخبرني؟ وعد بأن يراني اليوم. لا أصدق ذلك؟

بدا الضيق البالغ على ستافروس وقال: «اتصل قبل ذهابه وترك لك خبراً بأنهم استدعوه».

فارتفع صوتها: «ولم تفكر في أن تبلغني ذلك؟ أي نوع من الناس أنت؟ وأي نوع من الفنادق هذا الذي يمتنع عن تسليم الرسائل إلى النزلاء؟ لقد ذهبت للقائه وانتظرته طوال هذا الوقت...».

فقال بصوت تعيس: «لم أشأ أن أفعل ذلك، بل هو عمي. قال إنّ من الأفضل أن تجدي أن السيد أندريس قد رحل، فتعتقدين أنه اختار هذه الطريقة لينهي علاقتكما فترحلين بدورك».

- أنت مخطىء لأنني أعلم أنه لن يفعل هذا أبداً. وكيف يجرؤ عمك على أن يتدخل في ما لا شأن له به؟

- نيته حسنة يا آنسة. إنه مولع بالسيد أندريس وكأنه ابنه.

- وطبعاً ظنني غير مناسبة له.

- لا أدري يا آنسة. إنه فقط يقول إنكما لا يمكن أن تكونا لبعضكما البعض. لكنه لم يقل السبب.

- حسناً، عندما يعود أندريس فسأكون بانتظاره مهما طال الوقت، ولتذهب عدم موافقة عمك إلى الجحيم. هل قال أندريس متى سيعود؟

- لا. قال فقط إنه استُدعي بسرعة.

استدارت لتصعد إلى غرفتها: «هذا حسن. إذا جاءتني رسالة أخرى، فاحرص على تسليمها لي حالاً من فضلك».

كان هذا نصرها الوحيد، إذ لم تصلها رسائل أخرى. وبقيت تنتظر ثلاثة أيام، وأخيراً منعتها كرامتها من أن تسأل عنه.

لعل أندريس أراد أن يبتعد عنها بقية عطلتها، وبهذا يتجنب المواقف المحرجة أو أي مشاهد عاطفية مؤلمة.

ولكن لماذا يفعل ذلك؟ تساءلت مرة بعد مرة. لماذا تظاهر بالحب؟ هل لمجرد اللهو والتخفيف من مله في الجزيرة؟

إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أنه ضحك عندما رآها تستسلم له بتلك السهولة.

لم يكن سهلاً أن تملأ أيامها، لكنها استطاعت ذلك بشكل ما. ونجحت سطحياً، في التغلب على إحساسها بالمذلة لهجره لها بهذه السهولة

المهنية. كما صمّمت على ألّا تسمح بطردها من الجزيرة.

كانت قد عزمت على الصمود في وجه التلميحات عن ورطتها، لكنها وبدلاً من ذلك، وجدتهم يعاملونها بمودة بالغة.

ذكرت الموضوع مرة لشيري: «أظن أن الكل يعتبر أني تسببت بذلك لنفسي».

فقالت شيري تربت على كتفها: «لا أحد يظن ذلك. أعلم أن أندريس رجل رائع، لكن عدداً من النساء يعلمن ذلك أيضاً».

كان مؤلماً للغاية أن ترى نفسها رقماً آخر في القائمة. لكنها أخفت ألمها وحيرتها وأبقت ابتسامتها مكانها، ورأسها عالياً وهي تشترك في بعض الرحلات والنشاطات التي تنظمها شركة السياحة والفندق نفسه.

وفي الوقت نفسه، تجنبت زيارة أي من الأماكن التي زارتها مع أندريس. فهي لا تستطيع مواجهة المزيد مما يذكرها به. كما لم تستطع العودة إلى فيللا دانا.

وفي اليوم الخامس، قامت برحلة إلى كيفالونيا لتستكشف العاصمة، ومرّت لحظات قصيرة شعرت فيها بالاسترخاء واستمتعت بما تراه. وخطر لها أنها ستشفى من حبها يوماً ما حتى أنها قد تعود إلى اليونان. ولكن ليس قريباً.

كان المساء في أوله عندما رست العبارة. فسارت على الرصيف ببطء شاعرة بالتعب.

رأت سيارة تقف أمام مدخل الفندق؛ وعلى الدرجات وقف رجلان كانا يتحدثان إلى ستافروس.

عندما اقتربت استدار الرجال الثلاثة لينظروا إليها، فوقفت وقد تملكها ضيق مفاجىء.

- آنسة لامبرت؟ السيد دراغوس يدعوك إلى العشاء الليلة.

خاطبها بذلك أحد الرجلين وهو يقترب منها فيما فتح الرجل الآخر باب السيارة.

صدرت عن زو شهقة وقالت ببرودة: «أرجو أن تشكر أندريس بالنيابة عني، وأخبره أنني لا أقبل أي دعوة في المستقبل المنظور».

وسكتت مصممة على أن تتجاهل ستافروس الذي أخذ يرسل إليها مذعوراً إشارات قلقة. فأضافت: «أنا واثقة من أنه سيفهم».

- أنت مخطئة يا آنسة لامبرت. السيد ستيفانوس دراغوس، والد أندريس يتمنى أن تتعشي معه. وهو يتطلع إلى الاجتماع بك لذا هلاّ رافقتنا من فضلك؟

فقالت باحتجاج وهي ترى نفسها تُرفع بتهذيب ولكن بحزم إلى السيارة:

- لكنني كنت في الخارج طوال النهار وأريد أن أغير ملابسي.

فقال الرجل بعناد: «مظهرك جيد جداً، يا آنسة لامبرت. إنها مناسبة غير رسمية».

نظرت زو إلى ستافروس باستغاثة: «هل ستبقى واقفاً هكذا، وتترك نزيلة عندك تُختطف؟»

فبسط يديه بعجز: «السيد دراغوس يريد أن يراك، يا آنسة زو».

فقالت ثائرة ساخرة وهي توضع في مقعد السيارة: «إذا لم أعد فلا تتردد في تأجير غرفتي».

جلست بجانب السائق وهي ترتجف غضباً ويداها تتشبثان بحقيبتها بشدة.

تجاوزت السيارة فيللا دانا، وتابعت طريقها. وكانت زو قد تخلّت لتوّها عن قياس المسافة عندما انعطفت السيارة إلى طريق جانبي لتقف أخيراً أمام بوابة حديدية مهيبة. أطلق السائق بوق السيارة فبرز البواب

من مكان ما وفتحها لهم.

عندما انغلقت البوابة خلفهم، جفّ حلق زو. وذكرت كلام شيري عن قوة ونفوذ ستيف دراغوس وما يمكنه أن يفعل فزاد ذلك في شعورها بالضيق.

وعندما لاح المنزل أمامهم رأته أقدم من فيللا دانا وربما بضعفي حجمها. أما جدرانه البيضاء فمزينة بعرائش الأزهار وغيرها من النباتات المتعرشة.

اصطفت أمام المنزل سيارات عدة، من بينها سيارة أندريس. رؤيتها جعلتها تغص بريقها، وفكرت في أنها لن تستطيع الصمود أمام كل هذا...

لكن السيارة توقفت وساعداها على الخروج ثم رافقاها إلى المدخل فوقفت ونفضت اليد التي تمسك بذراعها وهي تقول بصوت منخفض: «دعني».

أسرع خادم بسترة بيضاء يفتح لها الباب فوجدت زو نفسها في غرفة فسيحة منخفضة السقف، مؤثثة بالأرائك والكراسي التي تحيط بمدفأة كبيرة.

لم تجد في الغرفة سوى شخص واحد، أندريس الذي وقف بقامته الطويلة في بذلته السوداء الأنيقة، يحدّق إلى الخارج. أجفلت زو لرؤيته وأخذ قلبها يخفق بعنف.

استدار ببطء ونظر إليها بوجه غير باسم غضّنه الإنهاك وقال باليونانية: «مرحباً».

بدا صوته وكأنه آت من مسافة بعيدة. مهذباً كصوت غريب يحيي غريباً.

رفعت رأسها وقالت بصوت أبح: «لماذا فعلت هذا؟ لماذا أحضرتني

إلى هنا؟».

ـ هذه ليست رغبتي بل رغبة أبي.

كان في صوته تردد غريب ثم عاد يقول: «إنه لن يتأخر. إنه يرتاح بعد رحلته من أثينا».

ـ هل هذا كل ما تستطيع قوله؟ ألا تظنني بحاجة إلى بعض التفسير؟

كان صوتها ممزقاً، وبادلته النظر بتوسل وكرامة محطمة: «قلت لي... ظننتك... تريدني...».

فقال بهدوء: «أنا أريدك ولا شيء يمكن أن يغيّر ذلك».

فقالت بصوت خافت: «وإذا طلبت منك أن تترك هذا المنزل معي... لنذهب معاً إلى الكهوف الفضية ونجرّب الصدى... فماذا ستقول؟».

أحنى رأسه بانهزام تقريباً: «سأقول... لا».

أوشكت أن تصرخ ألماً، لكنها أرغمت نفسها على أن تقول بثبات: «هل أحببتني حقاً؟».

رأته يجفل، وقال: «لم يعد هذا مهماً. لقد تغيّر كل شيء. عليك أن تفهمي».

ـ لا أفهم شيئاً. أخبرني يا أندريس، أرجوك... ما الذي يجري؟ هل أجبروك أن تتخلى عني؟ هل هذا هو السبب؟

ـ ليس أمامي خيار.

ـ كل إنسان لديه الخيار.

وتقدمت إليه بسرعة: «وأنا اخترتك».

وأمسكت بيديه لكنه ابتعد عنها بعنف تقريباً، وهو يتنفس بخشونة والألم يغطي وجهه وقال:

ـ لا يمكنني أن ألمسك يا زو. ولا يمكنني أن أسمح لك بأن تلمسيني. لقد انتهى الأمر بيننا.

سمعت الباب خلفها ينفتح فالتفتت.

وقف بالباب رجل ينظر إليهما مقطباً وهو يتفحصهما.

حتى من بعيد، شعرت زو بهالة من القوة والنفوذ تحيط به، وأحسّت بمهابة وجوده. وخطر لها أن أندريس سيبدو بهذا الشكل بعد أربعين عاماً... إلا أنها لن تكون موجودة لتراه هكذا.

وعندما تحدث، جاء صوته عميقاً، وأبح قليلاً وكأنه يحاول أن يكبح مشاعره: «إذن، فأنت ابنة جينا... جئت إلي أخيراً. كان ستافروس على حق. أنت صورة عنها، كنت سأعرفك في أي مكان».

تصلّب جسم زو وقالت ببرودة: «آسفة لعدم تمكني من رد المجاملة».

لكنها كانت تعلم أن هذا ليس صحيحاً، لأن غريزتها أخبرتها أنه الرجل الذي في الصورة التي حفظتها أمها سراً كل تلك السنوات.

نظرت إلى أندريس الذي وقف كالتمثال بوجه غير معبر. وفكرت فجأة في أنها لا تريد أن تكون هنا. أرادت أن تضع يديها على أذنيها وتهرب:

ـ دعيني إذن أقدم نفسي. اسمي ستيفانوس دراغوس... ويشرفني أن أكون أباك.

ـ لا.

تهدج صوتها وهي تنطق بهذه الكلمة. التفتت إلى أندريس تهتف به بصوت يتملكه الذهول والرعب:

ـ أخبرني أن هذا غير صحيح.

لكن نظرته المعذبة أثبتت لها ما ترفضه. نظرة أدركت أنها سترافقها

حتى نهاية حياتها. نظرة تقول إن كل أمل ضاع إلى الأبد.

وكان هذا آخر ما رأته قبل أن تفتح أمامها فجوة مظلمة أخذت تدور كدوامة. حاولت أن تنطق باسم أندريس لكن الظلام أحاط بها ثم احتواها فاستسلمت له.

٩ ـ قلبي مريض

راحت تستعيد وعيها تدريجياً. ثمة نعومة تحتها، وضوء أمام عينيها المغمضتين وأصوات تتكلم بهدوء وشيء بارد مبلل يلامس وجهها.

فتحت عينيها ببطء ونظرت حولها، من دون أن تفهم شيئاً. كانت مستلقية على سرير، ورجل لم تره من قبل يقف بجانبها. قال: «إذن، فقد عدت إلينا يا آنسة زو. هذا حسن...».

ومد يده إلى معصمها يقيس نبضها. سألت بصوت خافت: «من أنت؟».

ـ اسمي فانوبوليس. وأنا طبيب السيد دراغوس الخاص.

دار رأسها وابتدأت تستعيد الصور... الذكريات. صوت يقول كلاماً مستحيلاً... عينا رجل تقولان وداعاً إلى الأبد. وقالت بوهن: «أشعر بغثيان».

ـ ابقي مستلقية. ستتخلصين من هذا الشعور.

ـ ماذا... ماذا حدث؟

ـ أغمي عليك. لحسن الحظ تمكن السيد دراغوس من أن يمسك بك قبل أن تقعي، فتجنبت أي رضوض.

ـ السيد دراغوس. لكنه كان في الجانب الآخر من الغرفة.

ـ عنيت السيد دراغوس الأصغر. أندريس أخوك، هو الذي أحضرك إلى هنا.

www.liilas.com

حدّقت إليه طويلاً، لتستوعب ما يقول، فأدركت أنّ ما حصل لم يكن مجرد كابوس يُنسى عندما تشرق الشمس، وأن حياتها تحطمت. وتمنت لو أنها ماتت.

وشعرت بالدموع تنساب على خديها، فأشاحت بوجهها لئلا يراها تبكي. وعندما استطاعت أن تتحدث بشكل طبيعي قالت: «أريد أن أترك هذا المكان الآن».

- من الأفضل أن تبقي، فقد أصابتك صدمة وأبوك يريدك أن تبقي تحت رعايتي الليلة. ولقد أبلغنا فندقك.

فقالت بعنف مفاجىء: «وأنا؟ أليس لي رأي في الموضوع؟ لقد انقلبت حياتي بأكملها رأساً على عقب. لم أعد أعرف من أكون ولا أستطيع أن أفعل شيئاً. هل هذا ما تقوله؟».

فتردد: «آسف إذ عرفت الأمر بهذه الطريقة. كنت أتمنى لو أخبروك بشكل ألطف».

انتصبت جالسة، ودفعت شعرها عن وجهها، شاعرة بالغرفة تموج بها قليلاً ثم تثبت، فقالت:

- ما كان ذلك ليشكل فرقاً يا دكتور. ما من طريقة تجعل هذا الشيء مقبولاً.

فتنهد: «ارتاحي الآن، يا آنسة زو. هل تريدين فنجان شاي؟ أو طعاماً؟».

- لا، بل أريد أن أتحدث إلى أندريس. هل لك أن تطلب منه الحضور إلى هنا؟

فقال بلطف: «ربما من الأفضل أن تري السيد ستيفانوس أولاً».

فضربت الفراش بقبضتها بعنف وعيناها تلتهبان: «كلا. أندريس أو أخرج من هذا البيت ولا أعود أبداً. وإلى جهنم بسيدك ستيفانوس!».

تنهد مرة أخرى لكنه ذهب إلى الباب، بينما عادت هي تستلقي على الوسادة. ما زالت تشعر بغثيان خفيف، كما أن رأسها يؤلمها لكن ذهنها كان صافياً. ولأول مرة نظرت من حولها بشكل شامل.

كانت الغرفة فسيحة رائعة الجمال ذات أثاث قديم الطراز. مصاريع النوافذ كانت مقفلة وعلى ضوء المصباح الذي على المنضدة رأت كتاباً مفتوحاً وأزرار قميص. كما رأت سترة رجل وربطة عنقه على ذراع كرسي عالي الظهر.

شعرت بجسمها كله يهتز بإدراك مخيف.

النقر على الباب كان خافتاً، ثم دخل أندريس ببطء، لكنه بقي عند العتبة ووجهه في الظل.

انتصبت زو جالسة وحدقت إليه فبدت عيناها واسعتين في وجهها الشاحب. وقالت بصوت أبح:

- هذه غرفتك أليس كذلك؟ سريرك؟ لقد أحضرتني إلى هنا... يا إلهي يا أندريس، يا لها من قسوة!

وتهدج صوتها فقال بتعب هائل: «كانت أقرب غرفة وكنت مريضة فلم... أفكر كثيراً. سامحيني».

فأغمضت عينيها: «ماذا سنفعل؟».

- ما من شيء نفعله. أنا ابن أبي وأنت ابنته. لا شيء غير ذلك.

كان صوته بارداً نائياً وكأنه تدرب على هذه الكلمات مراراً حتى تجردت من كل شعور.

- متى علمت؟

- اتصل صديق بأبي عندما كان في أثينا. وكان يعلم بالعلاقة بينه وبين أمك لأنها كانت تقيم في فندقه.

- ستافروس؟

ـ نعم، ستافروس. ما إن رآك حتى عرفك. وعندما رآنا معاً خاف. أظن أن علينا أن نكون شاكرين له.

ـ أحقاً؟ آسفة لأنني لم أصل إلى هذه المرحلة بعد.

فقال بوحشية: «ولا أنا».

وتقدم وجذب الكرسي الذي عليه ملابسه ثم جلس عليه، مبتعداً عنها مسافة كافية.

سمعت نفسها تقول بشكل آلي: «أندريس... سترتك... ستتلفها».

ثم سكتت مذعورة وهي تراه يجفل، ثم يقول بكآبة: «أنت تتكلمين وكأنك زوجتي يا زو. من القاسي فينا الآن؟».

فدفنت وجهها بين يديها: «يا إلهي ... سأعود إلى إنكلترا».

ـ لا، بل أنا من سيرحل. سأعود إلى أثينا الليلة. عليك أن تبقي لفترة على الأقل. أبي يريد أن يتعرف إلى ابنته فقد انتظرك طويلاً. مهما كانت مشاعرك يا عزيزتي لا يمكنك أن تحرميه من ذلك.

فارتجف صوتها: «هل كنت تعلم عن أمي؟ عن علاقتهما».

ـ أظنني أعلم عن علاقات أبي كلها، فقد حرصت أمي على ذلك. كن فتيات كان يعرفهن في باريس وروما ونيويورك. أما جزيرة تانيا فكانت ملجأه. وكانت أمي تكرهها فلم تأت إليها قط. ولم يكن لديه صديقة في تانيا حتى تعرف إلى أمك وأحبها. وبعدها... لا أظنه اتخذ صديقة... في أي مكان.

ونظر إلى يديه المشتبكتين بشدة في حجره ثم تابع: «كانت أمي تصرخ بأنه يبني بيتاً في تانيا لعاهرة أجنبية. وأتذكر أنها كانت تضحك وهي ترى البيت خالياً عاماً بعد عام، تضحك لفكرة أن المرأة التي أحبها إلى ذلك الحد، ستعود إليه يوماً ما وسيسعدان معاً أخيراً».

فقالت زو بصوت مختنق: «كانت سعيدة. سعيدة بزوجها... أبي.

الرجل الذي أحمل اسمه على شهادة ميلادي، الذي ربّاني ورعاني. لماذا فعل ذلك لابنة رجل آخر؟».

ـ ربما لأنه كان رجلاً طيباً ويحبها أيضاً. يبدو أنها كانت من النساء اللواتي يلهمن الحب.

فغصت بريقها: «نعم. كانت كذلك... كنا... أسرة سعيدة. أو... هذا ما كنت أظنه».

فقال بهدوء: «بينما لم تكن أسرتي كذلك طبعاً».

ـ إذا ما أحب أبوك أمي إلى هذا الحد، فلماذا لم يطلق زوجته ويتزوجها؟

ـ لقد حاول ذلك. ولكن رغم أن أمي لم تهتم بالعيش مع أبي كزوجة، إلا أنها أحبت المال والمركز الاجتماعي.

وأضاف بمرارة:

ـ يا إلهي، كانت تستعمل مرضها سلاحاً. فإذا أصبحت زوجة سابقة له، ستهتز صورتها وستعاني من ذلك. كان وضعاً كريهاً ترك تأثيراً سيئاً للغاية في أمك، فشعرت بأنها ممزقة بين حبها لأبي والمشاكل الكبرى التي سببتها علاقتهما. فحتى إن رضيت بالعيش مع أبي كخليلة، إلا أنها لم تضمن أن تتركهما أمي بسلام. في النهاية، لم تستطع أن تجازف بقبول ذلك ... فرحلت. عادت إلى إنكلترا بعد أن جعلته يعدها بقسم مقدس بألاّ يلحق بها.

فسألته زو غير مصدقة: «رغم أنها كانت حامل بطفله تركها ترحل؟».

ـ لم يكن أي منهما يعلم أنها حامل. كما أنه لم يتركها بتلك البساطة، وما كان ليستطيع ذلك. لكنه بقي عند عهده لها فلم يتبعها، إنما أخذ يراسلها متوسلاً إليها لتعود، وأخذ يبني لها الفيللا ضماناً للمستقبل.

وعندما كتبت إليه أنها حامل تملكه فرح غامر. وكتب لها على الفور يطلب منها العودة، مرسلاً لها تذكرة سفر، ونقوداً لكن المال والتذكرة أعيدا إليه دون تفسير، ثم انقطعت المراسلات بينهما.

فشهقت زو: «وكيف سمح لذلك بأن يحدث؟».

لوى أندريس شفتيه: «كان أبي قد ازداد انكباباً على العمل بعد فراق حبيبته، من باب التعويض عن خسارته لها، وكان يعيش على الأمل. وعندما جاءته هذه الصدمة التي لم يتوقعها، أصيب بانهيار عصبي وبقي مريضاً أشهر عدة، وعندما شفي كان أول عمل قام به هو الكتابة إليها متوسلاً أن تعيد النظر. لكن رسائله عادت إليه غير مفتوحة. كانت أمك قد انتقلت من بيتها من دون أن تترك عنواناً لتحويل الرسائل إليه. ومن ثم اختفت دون أن تترك أثراً. وعندما استقصى أخيراً أخبارها، وجد أنها تزوجت، وازداد ألمه عندما علم أنها دعت طفلته زو وهو الاسم الذي اختاره مرة ليطلقه على ابنته، إذا رُزق بابنة. ورغم هذا، كتب لها آخر رسالة يخبرها فيها أنه ما زال يحبها وسينتظرها على الدوام».

واستند إلى الخلف وقد بدا الإرهاق على وجهه: «وأنا يا حبيبتي زو، كان عليّ أن أضع مشاعري جانباً وأخبره، وهو الرجل المريض، أن كل رجاء قد انتهى».

ـ وماذا قال؟

ـ بقي فترة صامتاً ثم قال إن هذا لا يدهشه، لأنه بقي حزيناً عليها منذ اليوم الذي فارقته فيه. لقد تركته، لكنك بقيت له... وها أنت جئت الآن للبحث عنه.

هزت زو رأسها: «لم تذكر اسمه قط... لم أجد سوى فقط صورة بيت لم تره قط. كيف أمكنها رسمه؟».

وبسطت زو يديها بحيرة، فقال: «أرسل إليها صوراً تخطيطية للمنزل، وكانت تعلم أين سيبنيه. ولا بد أن مخيلتها أكملت الباقي. لعلها لم تستطع

التخلي عن حلمها كلياً».

ولوى فمه بمرارة. فقالت بصوت خافت: «وبدلاً من ذلك، حطما أحلامنا».

ـ أنت تعلمين أنه منحها البيت، فلماذا لم تخبريني؟

ـ كنت أنوي إخبارك في ذلك الصباح الذي تواعدنا فيه على الاجتماع كما كنت أنوي أن أعيد الأوراق وأخبرك بأنني لا أريده... وأن علينا أن ندفن الماضي. يا إلهي، يا لها من نكتة... يا لها من نكتة جهنمية مأساوية!

وضحكت بمرارة، ثم سألته: «ألم يساورك الشك في من أكون؟».

ـ أنّى لي أن أعرف بينما لم أكن أعلم أنك موجودة؟ كان أبي يغضب دوماً حين أحاول مناقشته في مسألة فيللا دانا. لقد رفض حتى أن يخبرني بجنسية حبيبته، فكيف بهويتها. ثم، ذلك الصباح في أثينا، باح لي بأسراره... نبهه ذلك الاتصال الهاتفي من ستافروس، فأدرك أن عليه أن يوقف علاقتنا في الحال، ولن يكون ذلك إلا بالصراحة. حينذاك، لم أصدقه، وليسامحني الله، فقد ظننتها مؤامرة ليدفعني إلى زواج كان يخططه لي، فاضطر لأن يريني صورها... حتى رسالتها الأخيرة له، حتى صدقته.

فقالت ورأسها يدور: «كان عليها أن تخبرني. لماذا لم تخبرني؟».

ـ لعلها هي أيضاً تمنت أن تنسى الماضي. أرادتك أن تستمري في الإيمان بأسرتك السعيدة.

بان الألم على وجهها: «نعم. لماذا جئت إلى هنا؟ تعرف أنني أخفي شيئاً أليس كذلك؟».

فقال برقة: «نعم، ظننت ذلك جزءاً من لعبة الحب التي نمارسها وقريباً جداً ستختفي الأسرار بيننا... والآن، فليساعدنا الله. لقد تحقق

هذا.

قالت بمرارة: «كان رجلاً متزوجاً ليس له الحق في أن يقع في الحب».

ـ لم يكن أمامه أيّ خيار. فأنا عندما رأيتك تهبطين الدرجات لم يخطر لي سوى: (ها هي أخيراً!).

أحنت رأسها وانحدرت من عينها دمعة: «أندريس... لا تقل هذا».

فوقف: «لا. من الأفضل، ألاّ نتقابل وحدنا مرة أخرى».

وسار إلى حقيبة أوراقه... ثم التفت إليها: «ربما نحن محظوظان لأننا لم نفعل ما نندم عليه».

فقالت بشعور بالوحشة:

ـ عناق واحد. آه يا أندريس. لن يعاقبنا الله لأجل عناق واحد فقط!

وقف عند الباب ونظر إليها بوجه منهك ثم قال بسخرية قاسية: «لا يا حبيبتي، بل أظنه عاقبنا... الآن، وسيبقى يعاقبنا إلى آخر حياتنا».

وأغلق الباب بهدوء. لقد رحل.

وبعدئذ سمعت هدير محرك الطائرة وهي ترتفع في الجو لتحمله بعيداً عنها.

استدارت ودفنت وجهها في الوسادة وبقيت مستلقية من دون حراك حتى تلاشى صوت محرك الطائرة. وعندما استيقظت في الصباح التالي، كانت مشتتة الذهن تماماً.

بعد رحيل أندريس جاءت مدبرة المنزل وأقنعتها بالانتقال إلى غرفة أخرى من المنزل. ولم تدهش عندما رأت أن حقائبها قد أُحضرت من الفندق وأفرغت.

عندما انفردت بنفسها، سارت إلى النافذة وأزاحت الستائر الشفافة وأخذت تحدق إلى الظلام. يا ليتها تجد عصا سحرية تشفي القلوب

الجريحة، أو تمحو الذكريات فتنسى الابتسامة في عيني أندريس وقوته وهو يحيطها بذراعيه، وعناقه الواعد.

سمعت طرقاً على الباب وصوت الطبيب يقول: «يا آنسة زو، أبوك قلق عليك».

فلوت فمها: «يا لقلبه الكبير!».

فقال بتأنيب خفيف: «إنه يسأل إن كان بإمكانه أن يراك في الصباح بعد أن ترتاحي وتهدئي».

ـ ارتاح؟ أهدأ؟ أخبرني يا دكتور، هل أنت مجاز في إجراء عمليات في الجزء الأمامي من الدماغ؟

ـ سأترك لك حبة منوم تأخذينها بعد الحمام.

بفضل الدواء، استطاعت أن تنام. لكن أحلامها كانت سيئة وغير مترابطة. ولقد انتهى الليل الآن وعليها أن تواجه الرجل الذي يدّعي أنه أبوها.

حدّقت إلى نفسها في المرآة محاولة أن تعثر على أثر من الشبه بينها وبين ستيف دراغوس، ولكن عبثاً.

كان الخادم الذي رأته الليلة الماضية، ينتظر أسفل السلم لكي يقودها إلى غرفة الطعام، فأخذت زو نفساً عميقاً ودست يديها في جيبي تنورتها ثم دخلت.

كان ستيفانوس دراغوس يجلس وحده على رأس طاولة فسيحة، يتصفح مجموعة من الصحف الدولية، لكنه أزاحها جانباً ووقف حالما دخلت.

كان يختلف بشكل ملحوظ عن ذلك الرجل الذي دمّر حياتها منذ ساعات معدودة..

وسحب لها كرسياً إلى جانبه، قال: «صباح الخير».

ردت عليه تحية الصباح من دون ابتسامة وجلست على كرسي أبعد.

رفع حاجبيه قليلاً، لكنه لم يقل شيئاً:

ـ هل أسكب لك قهوة أم تفضلين الشاي؟

ـ عصير برتقال وقهوة فقط، من فضلك. أنا لست جائعة.

ـ ولكن يجب أن تأكلي وإلا مرضت.

فنظرت إليه ببرودة: «يا سيد دراغوس، قلبي مريض فعلاً، والطعام لا يمكن أن يشفيه».

أخذت عيناه تتفحصان زو من دون أن تطرفا ثم قال: «إذا حصلت على ما تحتاجينه، فيمكننا أن نتحدث».

رشفت بعض العصير ثم قالت: «ليس هناك الكثير لنقوله. كنت على علاقة بأمي جئت أنا بنتيجتها وليتني لم أعلم ذلك».

ـ ألا تشعرين بالفضول حيال الماضي؟

ـ حدث ذلك مرة. ولهذا جئت إلى هنا، بعد أن عثرت على الأوراق التي تمنح أمي فيللا دانا، ففكرت في أن أعرف كل شيء عن ذلك، وكنت مخطئة.

فقال بعد فترة: «أنت تحدثت عن علاقة، لكنها كانت أكثر من ذلك. كانت أمك حب حياتي وقد فقدتها».

وضعت كأسها وقد التوى فمها: «كم يكرر التاريخ نفسه».

بقي صامتاً لحظة، ثم قال بهدوء: «ظننت أني أعرف كل شيء عن الأحزان لكنني كنت مخطئاً. ليس لي عذر في أن أحب أمك يا صغيرة، ولا يمكنني الاعتذار لذلك. كل كلمة قالتها، كل ابتسامة... كل إشارة، كانت تبارك حياتي. ولكن لم أقصد قط أن أسبب الأذى لك أو لأندريس صديقي.

خفضت نظراتها ثم قالت: «في هذه الحالة يمكنك أن تفهم لما لا

أستطيع البقاء هنا ولما عليّ أن أعود إلى موطني».

ـ موطنك هنا.

فقالت بصوت مختنق: «لا! هذا غير صحيح ولن يكون أبداً. هذا مستحيل».

ـ ربما لم يحن الوقت بعد، لكنك ستشعرين بذلك يوماً ما، لأن دمي يجري في عروقك يا عزيزتي.

فهزت رأسها: «أحقاً؟ إذا كان هذا صحيحاً لشعرت به، لشعرت بصلة ما بيننا... لكنني لم أشعر».

وضغطت قبضتها على صدرها فقال: «أستطيع أن أصبر، فقد تعوّدت هذا. ويوماً ما ستقبلينني أباً لك».

رفعت رأسها متحدية: «ثمة فحوصات يمكن أن تثبت ذلك، يا سيد دراغوس».

ـ أتشكين في كلامي؟ ولكن ربما تصدقين أمك.

ومد يده إلى جيب قميصه وأخرج قطعة ورق حائلة اللون. أخذتها منه رغماً عنها وتفحصت السطور القليلة الباهتة اللون. لم يكن ثمة شك في أنه خط أمها، وهي تقول ببساطة إنها بصحة جيدة وسعيدة لأنها حامل بطفله.

ـ هل كانت هذه آخر رسالة منها؟ هذا غير مفهوم.

ـ قلت هذا لنفسي آلاف المرات. وأنا ألوم نفسي أيضاً. كان عليّ أن أذهب إلى إنكلترا وأصر على أن تأتي إليّ. لكنني وعدتها، فلم أستطع اللحاق بها وإلا لما غفرت لي ذلك... وبعد ذلك سمعت أنها تزوجت.

وحدّق إليها بحدة: «هل كان طيباً معها، ذلك الرجل؟».

فابتلعت ريقها: «نعم، كان رائعاً معنا. ولهذا لا أصدق أنه وأمي كذبا علي في أمر بهذه الأهمية».

بقي صامتاً لحظة ثم قال: «ألم تتحدث عني قط؟».

وكان في صوته نبرة متلهفة كئيبة، فحاولت أن تجعل صوتها أكثر رقة: «لا. أظنها كانت قد وضعت هذه المرحلة من حياتها خلف ظهرها. لكنها احتفظت بصورتك، ورسمت صورة رائعة للمنزل الذي بنيته لها».

ـ والذي ورثته أنت الآن.

ـ لقد وجدت الأوراق صدفة، فعجبت... لكن فيللا دانا لم تكن ملكها بأي مفهوم حقيقي، وبالتالي ليست ملكي أيضاً.

ـ لكنني أريدك أن تأخذيها، يا عزيزتي.

وعندما أخذت بالاحتجاج رفع يده: «استفيدي منها كما تشائين. عيشي فيها أحياناً، بيعيها، امنحيها لأحد. الخيار لك».

ـ هذا... سخاء بالغ.

ـ أنت ابنتي، وكنت لأمنحك أكثر لو سمحت لي بالاعتراف بعلاقتنا جهاراً.

ـ لا... هذا مبكر جداً. أنا... أنا بحاجة إلى وقت. عليّ أن أفكر في هذا... في كل التعقيدات. عليك أن تفهم ذلك.

ـ سأحاول.

ووقف: «تعالي نسير معاً في الحديقة».

عندما أخذا يسيران على الشرفة، قال بهدوء: «لم يكن على أندريس أن يخبرني أنها رحلت، فقد شعرت بذلك. هل يؤلمك أن أتحدث عنها؟».

ـ لا. ولماذا؟ نحن نحبها. أنا تقبّلت هذا على الأقل.

ـ أتريدين أن تعرفي كيف تعارفنا؟ بسبب التواء كاحل. كنت عائداً بالسيارة إلى المنزل، عندما رأيت فتاة تجلس إلى جانب الطريق تحاول ربط قدمها. رأيتها تتألم فأوقفت السيارة وعرضت عليها المساعدة. أحضرتها إلى هنا، فغسلت لها مدبرة منزلي قدمها ثم ضمدتها.

فقالت زو بابتسامة مرغمة: «قصة شاعرية».

ـ لكن تلك الفتاة لم تكن أمك بل أختها. استنتجت أن هذا حدث عندما اندفعت بشكل عاصف بعد مشاجرة لم تكن الأولى.

فاندفعت زو تقول من دون وعي: «لا شيء جديد في هذا».

ـ لا؟ أستطيع تصديق هذا. فجاءت جينا لتأخذها، فأحبيتها حالما رأيتها. عندما دخلت الغرفة كسفت الشمس. لم أخف عنها أنني متزوج لكن مشاعرنا كانت قوية للغاية. وقد أقنعتها بأن تنتقل إلى هنا مع أختها لكي تبقى معي عندما تنتهي عطلتها. لم أستطع أن أصدق أن مثل هذه السعادة موجودة.

ـ هل بقيت خالتي ميغان معها؟

ـ لا، لقد عادت إلى الفندق.

ومرت على وجهه سحابة مظلمة، وعجبت زو لأن خالتها لم تستقل أول طائرة إلى الوطن.

وعندما أصبحت وحدها في غرفتها تلك الليلة، كان لديها الكثير لتفكر فيه. كانت لا تزال مصممة على الرحيل في أقرب وقت ممكن.

ربما سيأتي يوم يصبحان فيه صديقين. لكن تقبّله كوالدٍ لها فاق قدرتها، فاندريس سيبقى بينهما دوماً.

فكرت بكآبة في أنّ عليها أن تترك هذا المكان، لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. فوالدها لا يريدها أن تذهب، وكان يكتسحها بحنانه.

كان يرافقها على الدوام، ليس للحديث فقط عن أمها جينا. أراد أن يعرف عن زو نفسها... وعن طموحاتها.

ومهما كانت شكوكها، بقي مقتنعاً بأنها ابنته التائهة منذ وقت طويل.

قال يذكرها بنوبته القلبية: «لقد جعلت من نقاهتي فترة بهيجة يا عزيزتي».

كان بهيجاً أن تعيش في بيت رائع الجمال حيث تُغيّر الملاءات يومياً بأيدٍ غير منظورة، ويُقدم لها طعام لذيذ لم تُعده بنفسها. ويُطلق لها العنان لتحقيق كل نزوة تخطر ببالها كما لم يحدث قط من قبل.

لكنها أدركت أن تانيا ليست المكان الذي تنسى فيه أندريس.

إنها تحلم به كلما أغمضت عينيها أثناء الليل. وكلما استدارت حول منعطف، أو انفتح باب كانت تتوقع أن تراه.

ـ أظنني سأذهب إلى ليفاسي هذا الصباح لأشتري بعض التذكارات والهدايا لأصدقائي لآخذها معي.

قالت هذا على الفطور، وهي تتوقع اعتراضاً من ستيف لكنه قال باسماً: «فكرة حسنة يا ابنتي. لدي بعض الأعمال هذا الصباح، لكننا سنلتقي بعد الغداء أليس كذلك؟».

ـ طبعاً.

في الطريق إلى ليفاسي طلبت من سائقها الخاص أن يوصلها إلى فندق ستافروس أولاً، وعندما دخلت زو إلى البهو، رأت شيري خلف المكتب: «لا أصدق. كنت أتشجع لكي أتصل بك هذا النهار. ثمة شخص يريد أن يراك».

خفق قلب زو بألم وعذوبة: «يراني أنا؟ هل أنت واثقة؟».

ـ إنه يتناول فطوره في الفناء الآن، إذا شئت أن تذهبي إليه.

وانحنت شيري إلى الأمام مخفضة صوتها:

ـ هل صحيح ما أخبر العم ستافروس زوجي به؟

ـ هذا ما يظنه ستيف دراغوس.

ـ عليك أن تدركي على أيّ حال أنهم ما كانوا ليسمحوا لأندريس بأن يتزوجك. فسوف يتزوج من فتاة أخرى اسمها تينا ماندرايس وأبوها من منافسي ستيف دراغوس في الشحن البحري. وقد خُطط لدمج

الشركتين.

ومنحت زو ابتسامة حملت مزيجاً من العطف والقلق: «آسفة، لكن من الأفضل أن يعد المرء نفسه لمواجهة الأمور».

وخطر لها وهي تبتعد أنّ ما من شيء يمكن أن يعدّها لمواجهة خبر كهذا. أندريس، كيف أمكنك ذلك؟ وبكى قلبها.

دخلت إلى الفناء ووقفت جامدة وقد اتسعت عيناها غير مصدقة وهي ترى الجالس إلى المائدة يقف ليحييها بابتسامة عريضة ساذجة.

قال جورج: «مرحباً يا زو. ما أجمل أن أراك!».

١٠ ـ لن تجرؤ على الشوق

ـ جورج، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ردّ جورج برزانة: «جئت لآخذك إلى الوطن».

وأخرج من محفظته تذكرتي سفر.

فنظرت زو إلى التذكرتين ثم إلى وجهه المتورد: «هل جننت؟ جورج، أنا في عطلة. وهذا ما يفعله الناس في الصيف».

تململ جورج بضيق وقال: «أنا أعرف هذا، يا زو. لكن خالتك ميغان لم تكن سعيدة جداً لقدومك إلى هنا. وأصرّت على أن أعيدك إلى الوطن، حتى أنها دفعت ثمن التذكرتين».

فقالت بفتور:

ـ أنت مجنون، لأن خالتي ميغان لا تهتم بما إذا كنت حية أم ميتة.

ـ أنت مخطئة. عندما ذكرت جزيرة تانيا كادت تصاب بنوبة عصبية فأحضرت لها أمي علاجاً مهدئاً.

ـ أنت ذكرت تانيا؟ كيف علمت أين أكون؟

فبدا عليه الارتباك: «صادف أنني كنت أتحدث إلى شقيقة أديل فأخبرتني بمكانك».

فارتفع صوتها: «هل كنت تتجسس لمعرفة مكاني؟ كيف تجرؤ؟».

ـ اسمعي يا زو، لا أجرؤ على العودة إلى الوطن من دونك. فقد قالت خالتك أشياء مرعبة فظيعة... لم أرها قط بمثل هذه الحالة حتى أن أمي

ذهلت.

قال ذلك وقد ازداد وجهه توردا، فقالت: «لا بد أنها ذهلت وإلا لما تركتك تسافر من دون حارس لكن عليها أن تعتاد على ذلك».

ووقفت وهي تغلي غضباً ثم أردفت: «تلقيت دعوة لإطالة إقامتي هنا، وأنا أفكر في ذلك جدياً. أتمنى لك نهاراً سعيداً يا جورج».

نظر إليها وكأنه تلقى صفعة: «لا تستعجلي، فقد قطعت هذه المسافة لأراك. تعشي معي الليلة أرجوك».

فقالت كارهة: «لا بأس، سأقابلك هنا في الساعة الثامنة، والآن عليّ أن أذهب».

كانت قد طلبت من السائق أن يقابلها في الساحة، ولكن بعد أن اشترت زهرية لأديل، أنهت تسوقها، فبقي أمامها وقت عليها أن تضيّعه.

سارت الى المقهى وهي تفكر في حضور جورج غير العادي. من الواضح أن خالتها خائفة من أن تكتشف حقيقة أبوتها، هذا هو التفسير الممكن. وفكرت في أن خالتها لم تهتم بها من قبل قط، فلماذا الآن؟

وفجأة، رأت العم ستافروس بجانبها، فقالت من دون أن تتمكن من إخفاء نبرة العداء في صوتها: «هل لديك شيء آخر تقوله؟».

ـ فقط أسفي لأنني سببت لك هذا الشقاء يا آنسة زو. هل أجلس وأشرب معك فنجان قهوة؟

فقالت بارتباك: «إذا شئت».

عندما وضع الفنجانان الصغيران أمامهما، قال: «أريد أن أخبرك يا آنسة بأنني حزنت لخبر موت أمك. كانت فتاة رائعة، لطيفة ورقيقة بقدر ما هي جميلة. أي رجل يمكن أن يزهو بحبها. وصديقي ستيفانوس... كان يعبدها».

ـ نعم، أظن ذلك.

ـ كان ينبغي أن يعيشا معاً. نعم... كان متزوجاً لكنه لم يكن سعيداً. فلماذا لم تعد؟

ـ لأنها تزوجت هي أيضاً وبدأت حياة جديدة.

فقال وكأنه يحدث نفسه: «أنا إذن مخطىء، ولم يكن الأمر بسبب المرأة الأخرى».

ـ هل تتحدث عن خالتي ميغان؟

ـ عفواً يا آنسة، لم أقصد أن أجرحك.

ـ لا، لم تجرحني. لكنني أريد أن أعرف. كانتا معاً في إجازة، أليس كذلك؟

ـ فتاتان جميلتان جداً، لكن جمال الكبرى في وجهها وليس في قلبها. فخلف جمالها، المرارة كلها.

هزت زو رأسها: «حتى حينذاك؟ لماذا قررت أمي أن ترحل معها؟».

ـ ربما أرادت أن ترضي أختها. كانتا تتشاجران يومياً. كثيراً ما كنت أرى أمك تغالب دموعها. وقد أغضبني أن أجدها تلتمس لها الأعذار وتسامحها على أمور لا تُغتفر.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا كانت تفعل كل ذلك؟

ـ لأنها كانت تغار. هي أيضاً أحبت صديقي ستيفانوس، بينما هو لم ينظر إليها قط.

* * *

كان يوماً حافلاً بالصدمات، كما رأت زو وهي تتأمل البحر. لم تعد إلى المنزل لأنها كانت بحاجة إلى الهدوء والانفراد بنفسها لتفكر. وتذكرت مطعم السمك حيث أخذها أندريس ذات يوم للغداء، فأقنعت سائقها بأن يقلها إلى هناك، بدلاً من المنزل.

كان صعباً عليها أن تتصور عمتها الخشنة الحقود تكتسحها المشاعر المحمومة. لكنها تذكرت أن ستيف دراغوس قابلها هي أولاً، فأنقذها وأخذها إلى بيته. هل بالغت ميغان في تفسير لطفه معها..؟ لطف اليونانيين نحو الغرباء؟

أضاف إلى خيبة أملها إهانة بوقوعه في حب أختها الصغرى، فهل اختزنت في أعماقها كل تلك الخيبة والحقد طوال تلك السنين؟

وتذكرت زو رد فعلها الغاضب على اللوحة، فصدّقت ذلك وأخذت ترتجف. لكن هذا لا يفسر مبالغة عمتها في ذلك إلى حد أرسلت معه جورج ليعيدها إلى الوطن.

فكرت في أن هناك حتماً سراً لا تريدها خالتها أن تعرفه، ولكن ما هو؟

بدا لها الآن أن مواجهة خالتها أمر ضروري مهما كرهت النتيجة. وهذا التحول جعلها تقرر ألّا تتأخر في العودة، حتى ولو خاب أمل ستيف.

ربما إذا عرفت الحقيقة كلها، فقد ترتاح قليلاً...

وعلى الفور، طلبت من السائق أخذها في جولة حول الجزيرة لتراها لآخر مرة. فقد حدثتها غريزيتها بأنها قد لا تعود إليها أبداً.

ستبيع فيللا دانا، وإذا رفض ستيف يأخذ ثمنها منها، فستمنح المال لدور الأيتام.

عندما وصلت إلى المنزل كان رئيس خدم أبيها ينتظرها وقد بدت عليه الإثارة:

ـ السيد ستيفانوس يريد أن يراك. إنه بانتظارك.

كان خلف مكتبه فنهض حين دخلت: «غبت فترة طويلة يا عزيزتي فقلقت عليك».

ـ قررت أن أتغدى في الخارج، ثم قمت بجولة على معالم الجزيرة. هل من مشكلة؟

ـ ربما نعم. أظن ذلك.

ونظر طويلاً إلى علبة السجائر على المكتب ثم حوّل نظره: «لدينا زوار غير متوقعين يا ابنتي. علمت هذا الصباح أن بيتروس ماندرايس في طريقه إلى هنا لمناقشة دمج شركتينا. لقد وصل وابنته كريستينا معه».

جمدت مكانها تنظر خلفه بعينين لا تريان، ثم قالت: «سأعود إذن إلى الفندق».

ـ لكنني بحاجة إلى وجودك على العشاء الليلة.

ـ سأتعشى الليلة في ليفاسي مع صديق قديم في المدينة.

فقال بلهجة فولاذية: «عليك إذن أن تلغي الموعد. ماندرايس شغوف بابنته الوحيدة، وقد شكت إليه أن أندريس في الجزيرة بدلاً من أن يبقى معها في أثينا يتودد إليها ويغازلها. كما أنه سمع إشاعات عن علاقة أخرى له. بالتالي فإن قضية دمج شركتينا أصبحت في خطر. أريد أن أريح ذهنه لكي أضمن الاتفاقية، ولهذا أريدك أن تحضري العشاء الليلة كما أريد أن أقدمك بصفتك ابنتي».

فهبّت زو في وجهه: «كلا. أنا غير مستعدة لذلك».

ثم سكتت لحظة وأردفت: «على أيّ حال، لا يمكنك أن تجازف بتقديمي كحبيبة أندريس السابقة... حسناً، لدي حل آخر. هل بإمكاني أن أدعو شخصاً معي الليلة؟».

عبس وسأل بسرعة: «هل هو رجل؟».

ـ نعم، وهذا يمحو أي شكوك.

ـ من هو هذا الرجل، وما هي صفته بالنسبة إليك؟

ـ صديق وزميل في العمل ليس إلاّ.

ـ لعله يريد أن تكون العلاقة أكثر من ذلك؟

قال هذا بدهاء وتملكه الرضا عندما أومأت إيجاباً قائلة: «ربما».

ـ لا حاجة إذن لتأكيد صفة الزمالة في العمل. اتصلي به يا ابنتي ووجهي إليه الدعوة.

لكن جورج لم يبد عليه البهجة البالغة بحسن حظه هذا، فقال باستياء: «ظننت أنك ستكونين لي وحدي».

ـ اقبل بهذا من أجلي وسأعاود التفكير في العودة معك إلى الوطن. اتفقنا؟

ـ في هذه الحالة، لا بأس.

وعند المساء، شعرت بالندم لعدم قبولها بأن يشتري لها ستيف ملابس. لم تجد في خزانتها ما يمكن مقارنته بملابس وريثة سفن الشحن. إنما، لديها على الأقل عقد اللؤلؤ ليضفي على ثوبها الأسود لمسة من الفتنة.

كانت يداها ترتجفان وهي تستخدم مواد التجميل البسيطة. لكنها محت آثار الأرق ووضعت لمسة من الحمرة على وجنتيها، ووضعت على شفتيها لوناً ورديّاً ناعماً.

أرادت أن تبدو هادئة محنكة، لكنها بدت ضعيفة خائفة كما أدركت وهي تلقي نظرة أخيرة على نفسها في المرآة.

عندما خرجت من غرفتها، توجهت مباشرة إلى ستيف فقال: «تبدين رائعة».

وتأبط ذراعها بحزم وقادها إلى السلم وهو يتابع: «أنا رجل مزهو الليلة».

فقالت بصوت أجش: «لا... لست واثقة من نجاحي في هذا الدور».

ـ أنت فتاة شجاعة وأنا أثق بك. والآن دعينا نتزل لنحيي ضيوفنا.

لكن الشخص الوحيد الذي وجداه في الصالة كان أندريس.

استدار عند دخولهما، وقال بابتسامة مائلة: «آنسة لامبرت؟ لم أتوقع هذا السرور».

ـ ولا أنا.

شعرت وكأن قلبها سينفجر بين ضلوعها، لكنها استطاعت أن تبتسم بشكل ما: «كيف... كيف حالك يا أندريس؟».

ـ أحاول أن أصل بهذا الدمج إلى نهايته. أخبرني أبي أنك دعوت ضيفاً الليلة.

ـ نعم، أرجو ألاّ يكون لديك اعتراض.

ـ وكيف يمكنني ذلك؟ على أيّ حال، ليس لدي الحق في الاعتراض.

وجاء صوت من الردهة، ضحكة خافتة لفتاة، فتصلب جسم أندريس وتمتم بشتيمة بذيئة بصوت خافت، ثم استدار إلى وضعه السابق أمام النافذة.

حمدت زو الله حين أعلن الخادم أن العشاء جاهز لكنها ذعرت حين اكتشفت أن مكانها بجانب أندريس فيما كريستينا الغاضبة قبالتهما مع جورج.

مدحت زو الطعام مرتين فوافقها أندريس الرأي بتهذيب بارد، ثم لاذت بالصمت، وهي تراه أكثر أماناً. لكنها لم تستطع أن تهرب من حقيقة وجوده، ووجدت الذعر يتملكها من أن يحتك كمه بذراعها.

لقد وقعت في مستنقع مليء بالمخاوف.

أصبح الحديث عاماً حول المائدة، وتحت غطاء جلبة النقاش بين ستيف وبيتروس ماندرايس، قال لها أندريس: «أخبريني يا عزيزتي زو، هل تنوين حقاً أن تتزوجي هذا الأحمق؟».

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ أنصحك بأن تطوي جورج وتضعيه تحت الوسادة وتنامي مع بيجامته، فتحصلين على تجاوب أكبر.

فارتعش صوتها: «أيها النغل».

ثم أردفت: «أنا... أكرهك».

فقال بخشونة: «أنت حكيمة. أنا أجاهد لكي أشعر بالإحساس نفسه».

ورأى كريستينا تنظر إليهما بتشكك فرفع كأسه لها باسماً فبادلته ابتسامته وقد هدأت نفسها، بينما تحوّل هو إلى زو يقدم إليها صحفة بطاطا بكل حرص المضيف على إرضاء الضيف.

كان لا يزال باسماً، لكن نظرته اخترقتها حتى العظم حين قال برقة بالغة: «لا تمرّ ساعة في النهار لا أفكر فيها بك يا عزيزتي، ولا ليلة لا أحلم فيها بك بين ذراعي، فأستيقظ معذباً. إنني أشمئز من نفسي لهذا الشعور الذي مازلت أحمله لك، لكنني لا أستطيع محوه من قلبي».

وسكت الصوت الهادىء. وفي اللحظة التالية، انضم أندريس إلى الرجلين الأكبر سناً. فيما بقيت زو في مكانها جامدة تتظاهر بأنها تأكل وهي تدعو الله أن تنتهي هذه السهرة.

١١ ـ ثورة غضب

عندما حامت الطائرة فوق مطار هيثرو قال جورج: «زو، هل كنت جادة حين قلت إنك ستتزوجينني؟».

كان سؤالاً انتظرته زو بخوف طوال النهار.

التفتت إليه آسفة وقالت برفق: «يا عزيزي جورج. أنت تعلم كما أعلم أنه لو وافقت أنا لأقنعتك أمك بتركي خلال أربع وعشرين ساعة. ذات يوم ستقابل امرأة وستحبها، وستسيران إلى مغيب الشمس معاً».

ـ وماذا عن مغيب الشمس لك، يا زو؟ إنه هو أليس كذلك؟ ذلك اليوناني المتغطرس.

ـ لا، لقد ظننت ذلك ذات مرة... ولكن ليس الآن.

– كان ينظر إليك طوال الوقت، فلماذا يتزوج تينا تلك إذن؟

ـ لأن لديها خط شركة، وأنا لدي شهادة في اللغة الإنكليزية.

فكرت زو في أن الأمر انتهى، وأنها آمنة في وطنها الآن، وأن بإمكانها أن تنسى.

عندما انتهى العشاء في الأمس ذهبوا جميعاً إلى الصالون ليشربوا القهوة. جلست زو بقرب ستيف، مقتنعة بأن ذلك أكثر الأماكن أمناً. لم تشأ أن تتحدث أكثر مع أندريس كما حدثت نفسها وهي تغرز أظافرها في راحتيها.

كانت خائفة حتى من أن تنظر باتجاهه، وكلما سمعت صوته، سرت

السخونة في كيانها.

كان جورج قد خرج مبكراً فرافقته إلى الباب مودعة ثم صعدت إلى غرفتها، متذرعة بصداع تملكها.

استيقظت بعد ساعتين على جدال غاضب في الحديقة تحت نافذتها بين أندريس وأبيه، وحمدت الله على أنها لم تفهم ما يقولان.

وفي الصباح، أعلنت أنها تريد العودة إلى الوطن بطائرة بعد الظهر مع جورج، فقام ستيف بكل ما يسهل رحيلها وكأنه أدرك أن الوقت حان لذلك.

لم ترَ أندريس حتى لوداعه، ولم تعرف هل تحزن لذلك أم تبتهج. فقد أخبرها بيتروس ماندرايس، أنه رافق ابنته كريستينا إلى الكهوف الفضية الشهيرة.

وتساءلت زو بحزن، عما إذا كان سيصرخ اسمها ليسمع الصدى؟

كانت اللحظة التي غادرت فيها البيت حافلة بالمشاعر، فقد احتضنها ستيف لحظة طويلة، ثم قال: «سأكتب إليك يا ابنتي، وستتحدث معاً هاتفياً أليس كذلك؟ سنرى بعضنا البعض مرة أخرى قريباً جداً... ربما ليس هنا... في باريس؟ أو روما على الأرجح؟».

فقالت: «نعم... هذا... هذا أفضل يا بابا».

وأرغمت نفسها على الابتسام وهي تنطق بهذه الكلمة... ثم تركته باسمة.

عندما وصلت أخيراً إلى شقتها كانت منهكة للغاية، فحضّرت شاياً مع الحليب وسارت إلى غرفة النوم.

أما الآن فهي تريد أن تنام.

بعد حرارة اليونان وجدت الملاءات ببرودة الثلج، فالتفت جيداً. أدارت رأسها قليلاً ونظرت إلى لوحة أمها.

كانت الصورة تذكرها بقسوة بما فقدته، وربما عليها أن تنزلها عن الجدار. لكنها ستقرر ذلك غداً.

أمضت ثلاثة أيام تنظف الشقة وترتبها وتقرأ المراسلات وتغسل الغسيل وتشتري ما تحتاجه من طعام.

وفي اليوم الرابع أخذت الهدية التي اشترتها لأديل وذهبت إليها.

قالت لها أديل وهي تحضّر القهوة بعد أن تسلمت هديتها وأعجبت بها: «لقد عدت مبكرة».

ـ هل رأيت كل الأماكن التي سبق ورأتها أمك؟

ـ أظن أنّ الأمور تغيرت كثيراً منذ ذلك الحين. خالتي ميغان... هل رأيتها مؤخراً؟

ـ لا، لكن الجميع يتذمرن منها فقد تشاجرت مع الكل.

وفي عودتها إلى البيت رأت زو أن تزور خالتها، فقرعت الجرس وطرقت الباب ولكن من دون جواب، رغم أنها كانت مقتنعة بأنها رأت شخصاً ما في الداخل.

تلقت رسالة من ستيف تقول إنه يفتقدها. محاموه في أثينا أرسلوا إليها مستندات تثبت أن فيللا دانا هي الآن ملك لها، فردت عليهم تطلب عرض الفيللا للبيع، وشرحت لهم ما عليهم أن يفعلوا بثمنها.

ابتدأ الفصل الدراسي في الخريف فعادت إلى مدرستها القديمة لتعمل مدة شهر قبل ترك العمل بعد الاستقالة. كانت وجورج يذهبان معاً إلى المقهى مرة في الأسبوع بعد العمل. قال لها مرة: «يبدو أن أمي لم تعد ترى خالتك كثيراً هذه الأيام، وذلك منذ ثورة غضبها تلك لسفرك إلى جزيرة تانيا».

ـ وأنا أيضاً لا أراها، لقد ذهبت إلى بيتها مرتين لكنها لم تجب عند طرق الباب. حين وصلت إلى شقتها كانت منهكة للغاية.

خلعت معطفها الواقي من المطر وأشعلت المدفأة قبل أن تجلس لتنظر إلى كومة الرسائل أمامها. رأت رسالة بطابع بريد يوناني ففتحتها أولاً.

كانت من محامي ستيف يقول فيها إنهم تلقوا عرضاً لشراء الفيللا فإذا قبلت سيبدأون بإعداد أوراق البيع.

هذه هي النهاية لكل شيء، كما أخذت تفكر وهي تحدق ساهمة إلى اللهب الأزرق في المدفأة راجية أن يشتريها رجل يعيش فيها ويحبها.

كانت على وشك أن تبدأ بإعداد وجبة عشاءها عندما رن جرس الهاتف.

قال صوت غريب: «الآنسة لامبرت؟ آسفة لإزعاجك لكنني قلقة على خالتك، فلم أعرف بمن أتصل».

فقالت زو: «لا أفهم. من أنت؟».

ـ اسمي فيريس وأنا أنظف لها البيت. أنا أعرف أنها في الداخل لأن غرفة الجلوس مضاءة والستائر غير مقفلة، و... إنها في غرفة الجلوس يا آنسة لامبرت تتمايل كما أنها تبدو مخيفة والمكان تسوده الفوضى. هذا أخافني جداً. فكرت في استدعاء الشرطة ثم تذكرتك.

ـ سأستأجر سيارة وآتي إليك حالاً، لكنني لا أضمن أن تفتح لي الباب.

حالما وصلت إلى هناك رأت سبب مخاوف فيريس إذ بدت خالتها ميغان كالمجنونة.

بدا الباب مقفلاً لكن زو أدركت أن المفتاح موجود داخل الباب الزجاجي فأخذت حجراً كسرت به الزجاج. فتحت الباب ودخلت تتبعها فيريس مترددة: «هل آتي معك يا آنسة؟».

ـ لا، سأتحدث إليها أولاً ولكن إذا سمحت حضّري بعض الشاي.

وقفت عند عتبة غرفة الجلوس، متمنية لو أنها في أي مكان آخر.

كانت خالتها ما زالت في كرسيها، شابكة ذراعيها على صدرها وهي تنشج بصوت خافت.

سارت زو إليها ثم ركعت بجانب كرسيها متجنبة صحيفة ممزقة وكتاباً كبيراً مجلداً عند قدمي خالتها.

قالت زو برقة: «خالتي ميغان، أنا زو... ماذا حدث؟ هل حطم أحد قفل الباب ودخل؟».

التفتت خالتها ببطء ونظرت إليها ثم قالت بصوت أبح:

- حطّم؟ نعم كل شيء تحطم منذ سنوات ولم يرمم قط، وقد فات الأوان الآن.

- لا أفهم. أخبريني أرجوك عما يزعجك. أحب أن أساعدك.

- لا أحد... لا أحد يستطيع أن يساعدني. كنت أظن أنني سأعود يوماً ما... أراه لآخر مرة... لكن الفتاة ذهبت بدلاً مني، فعرفت أنها ستخبره أنني كذبت عليه. عندئذ، لن يقبل بأن يراني. ولم أستطع احتمال ذلك، لأنني طالما فكرت في أن أجعله ينظر إلي كما كان ينظر إليها. لكن الوقت فات الآن.

كانت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة فتسيل على خديها لتقطر على حجرها.

ابتلعت زو ريقها وشعرت وكأنها تسير في حقل ألغام لكنها سألت: «هل تعنين ستيف دراغوس؟».

حملقت خالتها فيها: «ستيفانوس! يا للاسم الرائع! كان بالغ الوسامة أيضاً. أصبت بالتواء في كاحلي، فحملني بين ذراعيه. أدركت حينذاك أنني تمنيت أن يستمر في حملي بقية حياتي، لكنه لم يحملني قط مرة أخرى».

ونظرت إلى زو: «لأنها جاءت فاختلف كل شيء. بقي رفيقاً معي لكنه لم ينظر إلا إليها».

وهزت رأسها: «لقد تركته لأنه كان متزوجاً ولم تقبل زوجته

بالطلاق. لو كنت مكانها لما رحلت قط. لبقيت معه دوماً لو طلب مني ذلك. لماذا لم يطلب مني ذلك؟ لماذا لم يحبني بدلاً منها؟ ثم أخبرني أنها عائدة إليه لأنها حامل منه. وفكرت فيهما معاً وهما ينجبان الطفل فلم أستطع أن أحتمل. وهكذا، كذبت وقلت لها إننا أصبحنا اثنتين لأنه كان ينام معي أنا أيضاً، فامرأة واحدة لا تكفيه».

- وهل... هل صدقتك؟

- كنت أختها... أختها الكبرى التي ترعاها، وكان هو رجلاً غنياً غير مخلص لزوجته. أظنها كانت في سرّها تخاف من ألاّ يتوقف عن حب نساء أخريات مهما كان مقدار حبه لها. وكنت أنا مصابة بجرثومة في بطني، فجعلتها تعتقد أنني حامل منه... صدقتني لأنني كنت أثبت شكوكها كلها... ومخاوفها كلها. أتذكر إنها قالت أنها ستفكر في الأمر، ثم غادرت المنزل فصدمتها سيارة. لم تكن إصابتها بالغة... بعض الجروح والرضوض فقط، ما عدا الجنين طبعاً، طفل ستيفانوس.

حبست زو أنفاسها: «أتعنين أن أمي... أجهضت؟».

- كانت ضعيفة الجسم فتركت طفل ستيفانوس يموت. كانت جينا صاحبة مبادىء أخلاقية. كانت تلوم نفسها لحبها له، وتتوقع العقاب من الله.

اصطكت أسنان زو وسألتها: «ماذا قالت حين أدركت أنك لم تكوني حامل؟».

- قلت لها إنني كنت مخطئة، لكنني سأتأكد في المرة القادمة. صدقت ذلك أيضاً، واقتنعت بأنه يحبني أكثر منها. وقد أمرضها ذلك فامتنعت عن قراءة رسائله رغم استمراره في الكتابة إليها. إليها فقط دون كلمة لي أنا. ومع ذلك كنت أدّعي أنني أتلقى رسائل منه. بعدئذ، انتقلت من المنزل وحصلت على عمل وتعرفت إلى رجل آخر. لم يكن مثل ستيفانوس لكنه أحبها كثيراً واستقرت حياتها وأنجبتك وأصبح لديها أسرة رائعة،

فكرهتها لذلك. وعدت إلى جزيرة تانيا وقابلت ستيفانوس. أخبرته أنني أحببته على الدوام وأنني طوع أمره في ما يريد، وأظنني ركعت أمامه لكنه لم يهتم بي. أراد فقط أن يسأل عنها... وعن طفله. أوشكت أن أخبره عن الإجهاض، لأنني أردت أن أؤلمه كما آلمني، لكنني عدت فأدركت أنه سيتألم أكثر بكثير لو ظن أن لديه طفلاً لن يراه. وهكذا، أخبرته أن جينا أنجبت طفلة وتزوجت رجلاً آخر لتحصل طفلته على اسم. وأنها لم تشأ أن تراه مرة أخرى.

فقالت زو ببطء: «كيف أمكنك أن تفعلي هذا؟ وأن تكذبي بهذا الشكل؟ وتحطمي حياة شخصين؟».

ـ لأنني رأيته قبلها، فكان عليه أن يحبني أنا وليس هي.

وأخذت تبكي مرة أخرى: «كل شخص كان يرغب فيها. حتى بعد أن تزوجت كان رأي زوجي أنها رائعة ولكنه رحل الآن».

ونظرت إلى الصحيفة وأخذت تنوح قائلة: «حبيبي ستيفانوس أيضاً».

فشهقت زو: «ما الذي تتحدثين عنه؟».

ـ لقد مات. مات فجأة... بنوبة قلبية. قرأت هذا في الصحيفة... لقد فقدته إلى الأبد.

بسطت زو الصحيفة بيدين مرتجفتين وسرعان ما وجدت الخبر. كان الحديث عنه مسهباً. وأعلنت الصحيفة أن إدارة شركاته استلمها ابنه الوحيد أندريس كما أن خطة دمج شركتي شحن دراغوس وماندرايس في سبيلها إلى الاكتمال.

أخذت تقلب الصفحات ببطء وكآبة حتى وقع نظرها فجأة على وجه أندريس يعلو نبأ قصيراً. فقرأت: «عندما يتخلى أندريس دراغوس عن صورة الفتى العابث التي رافقته طوال السنتين الماضيتين سيوفر له زواجه الوشيك، استقراراً إضافياً».

وجاء الطبيب ومن بعده سيارة الإسعاف ونقلت الخالة ميغان إلى مستشفى خاص.

بدا لزو أن كل شيء حدث بسرعة، لقد مات، ودفن بعد يومين. حتى لو علمت بموته لما استطاعت حضور جنازته في الوقت المناسب.

وهل لها الحق في أن تحضر الجنازة في مثل هذه الظروف؟

كما أن الصحفيين سيرغبون في أن يعرفوا من تكون وأي علاقة لها بالمرحوم، لذا، لا يمكنها أن تلوم أندريس لإغفاله إعلامها.

كانت غريزتها محقة طوال الوقت. فقد شعرت بالمودة نحو ستيف دراغوس، وربما كانت لتحبه كثيراً كأب لها، لكنها كانت تشعر دوماً في أعماقها بأنها ليست ابنته.

طوت الصحيفة بعناية، وفكرت في أن تضعها في الكتاب المجلد. لكن، عندما فتحته وجدت أنه ليس كتاباً بل ألبوم للصور.

راحت تقلّب الصفحات ببطء حتى وصلت أخيراً إلى صور تلك الإجازة في جزيرة تانيا. يبدو حقاً أن خالتها تعبت جداً على هذه الصور، إذ كتبت على كل منها الاسم والتاريخ... وراحت تبحث عبثاً عن تاريخ ما فلو وجدت تاريخ الإجازة لكان في ذلك برهاناً واضحاً على أنها لا يمكن أن تكون ابنة ستيف دراغوس. لقد ولدت بعد ذلك بسنة ونصف على الأقل. أنا وأندريس حران في أن نحب بعضنا البعض. لكنني في الواقع وحدي... بينما هو على وشك أن يعقد زواج مصلحة... وبالتالي لن يكون أي منا سعيداً.

وضعت الألبوم من يدها وهي تنهد، ثم تركت الغرفة واتصلت تستدعي سيارة أجرة لتعود إلى بيتها.

تذكرت، وهي تصعد الدرجات إلى شقتها، أنها كانت قد باشرت في إعداد وجبة عشائها. وقفت أمام الباب لتفتحه وإذا بها تفاجأ بشخص طويل متكىء على بابها.

أطبقت بيدها على فمها تخنق صرختها وهي ترى أندريس ينتصب ثم يتقدم نحوها.

بدا منهكاً لكن شبح ابتسامته القديم حام على وجهه وهو يمد لها ذراعيه: «يا حبيبتي».

قالت شيئاً غير مفهوم وألقت بنفسها بين ذراعيه.

وعندما ابتعد أخيراً عنها، قال بصوت أجش: «هاتي مفتاحك، لن تبقيني في الخارج، أليس كذلك؟».

فتحا الباب بشكل ما ورفعها أندريس ووضعها على الأريكة.

كان يتمتم يخاطبها بلغته بصوت خافت ويداه تحتضانها.

وأخيراً، أخذا يتحدثان لأن لديها أسئلة تتطلب أجوبة. وسألته: «متى أدركت أننا لسنا شقيقين؟».

ـ عندما طلبت بيع الفيللا، أراني المحامي نسخة عن شهادة ميلادك. كنت أعلم متى أقامت أمك في الجزيرة فلم يتلاءم التاريخان.

ـ ومع ذلك لم تفعل شيئاً؟ فتركتني أستمر في الظن أننا خسرنا بعضنا البعض؟

جذبها إليه يحتضنها: «فعلت ذلك من أجل أبي. كان متلهفاً إلى أن يصدق ذلك، فأنت هبة الله الرائعة التي انتظرها سنوات طويلة. وهذا ما جعله يرفض فحص الدم كما نصحه المحامي، لأنه رفض أن يعترف باحتمال حصول أيّ خطأ. كنت أنت ابنة حبيبته جينا، وبالتالي ابنته أيضاً. لم... لم أستطع أن أمحو ذلك من ذهنه. نبّهني الأطباء إلى أنه قد يتعرّض لنوبة أخرى في أي وقت، وهي غالباً ما تكون مهلكة. أردته أن يكون سعيداً طوال الوقت الذي بقي له في هذه الحياة. وكان كذلك يا حبيبتي. كان يفكر فيك دوماً ويتحدث عنك. لوميني إذا شئت».

ـ لا، أتفهّم شعورك وأنا مسرورة أيضاً. أتذكر الطريقة التي ودّعني

بها. أظنه كان يعلم أنه لم يعد لديه الكثير ليعيشه، آسفة لأنني لم أحضر جنازته.

ـ ما كان ذلك ليريحك. من الأفضل أن تتذكريه كيف كان... وقد دُفنت رسالة أمك معه في قبره.

ـ شكراً! أظن أنّ تلك الرسالة هي التي جعلته واثقاً من أنني ابنته فضلاً عن كذب خالتي ميغان.

طوقها بذراعه وقال: «ما كان لك أن تواجهيها في بيتها وحدك».

ـ أردت أن أكرهها، لكنني لم أستطع. لقد جعلتني أرى مدى خطورة الحب عندما يكون... ملتوياً بهذا الشكل.

ـ والآن أنت تعرفين أيضاً كم يمكن أن يكون جميلاً.

ـ آه، نعم.

ـ حبيبتي زو... ارحميني قليلاً وإلا فلن أعيش حتى يوم الزفاف.

ـ وهل ستتزوجني؟ ولكن كيف؟

ـ في الكنيسة وفي أسرع وقت ممكن، فأنا متلهف إليك.

ـ أندريس... لست مضطراً لأن تتزوجني.

شعرت به يجفل: «ما هذا الهراء الذي تقولينه؟».

ـ أنت مخطوب لتينا ماندرايس. واتحاد شركتيكما يتوقف على زواجكما. وهكذا، فكرت في فيللا دانا. أمي لم تسكن فيها، لكن بإمكاني ذلك إذا شئت. سأبقى لك طالما تريدني.

ـ لكنك بعت الفيللا يا عزيزتي والمالك الجديد لن يسمح بأيّ تصرّف لا أخلاقي في بيته.

فنظرت إليه بدهشة: «يبدو أنك تعرفه جيداً».

فضحك: «طوال الحياة».

شهقت: «أنت؟ أنت اشتريت الفيللا؟ ولكن لماذا؟».

ـ لكي نعيش فيها معاً. إنها بحاجة إلى أناس، أولاد، حب، لبعث الحياة فيها. وأرى أن نبيع بيت أبي لأن ليس لي فيه من الذكريات السعيدة سوى القليل.

ـ ولكن ماذا عن اتحاد الشركتين؟

ـ أنا مهتم أكثر باتحادنا.

ـ كن جاداً يا حبيبي.

ـ وهل تظنينني لست كذلك؟ دعيني إذن أخبرك بما أخبرت به أبي... قلت له إنني أنوي الزواج عن حب، وإنني لا أحب ولا أستطيع أن أحب تينا ماندرايس. والمرة الوحيدة التي فكرت فيها جدياً بالزواج منها هي عندما ظننتك أختي وبالتالي محرّمة علي، فكل النساء سواء إذا لم أتزوجك أنت بالذات. ولكن حتى هذا لم يستطع أن يقنعني بزواج المصلحة. فقررت أن أبقى وحيداً.

فقالت بدلال: «وأعزب؟».

ـ كنت سأحاول لكنني لا أظن أن هذا الوضع يناسب أياً منا، يا ملاكي. أما بالنسبة إلى الاتحاد، فماندرايس بحاجة إليه أكثر مني. وأظنه سيلاحق الأمر حتى دون أن أكون صهره..

وتنهدت: «لم أكن أظن أنّ السعادة ممكنة إلى هذا الحد».

فأحنى رأسه وعانقها برقة فائقة: «وهذه هي البداية فقط، يا حبيبتي... وزوجتي».